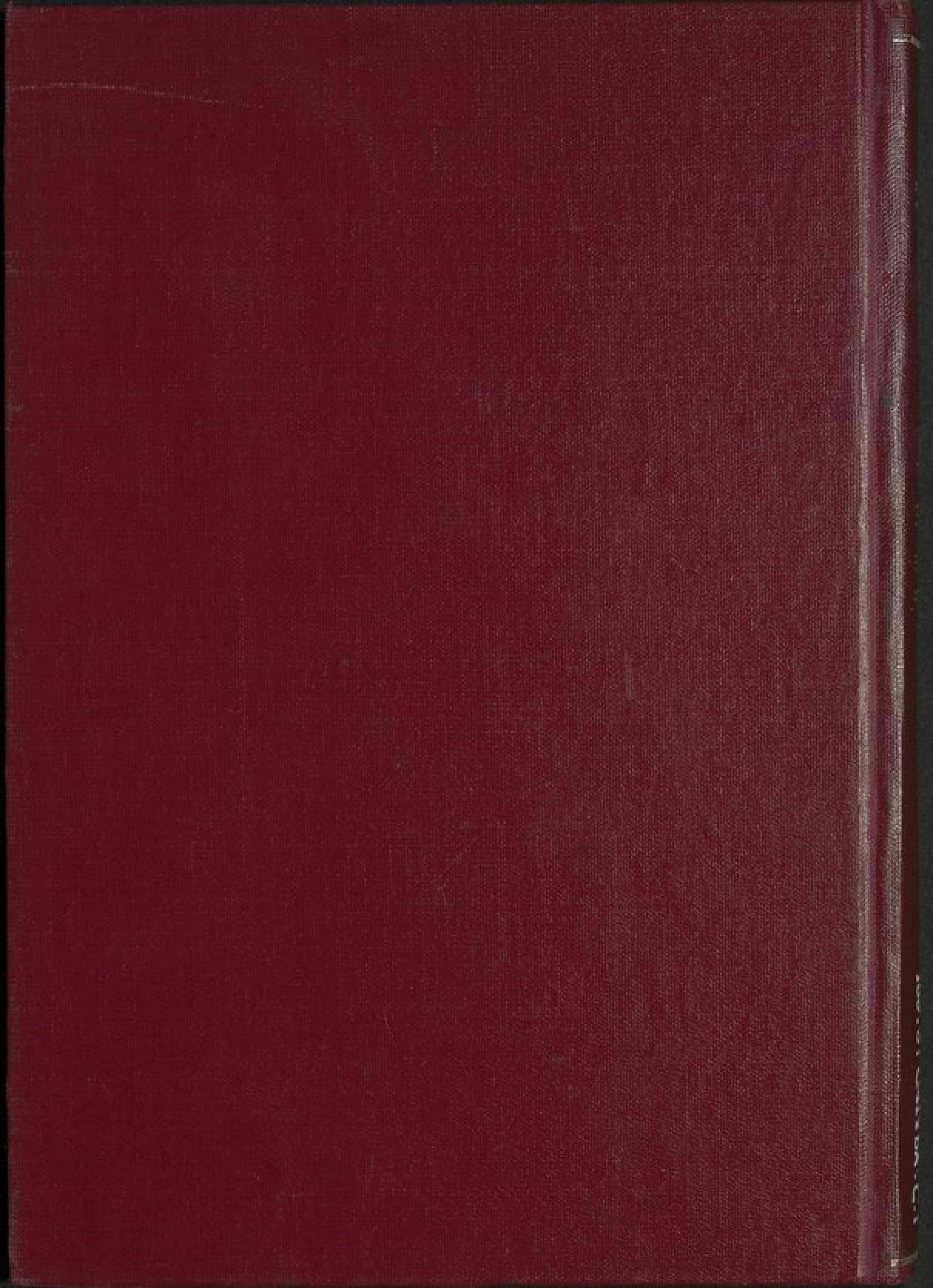
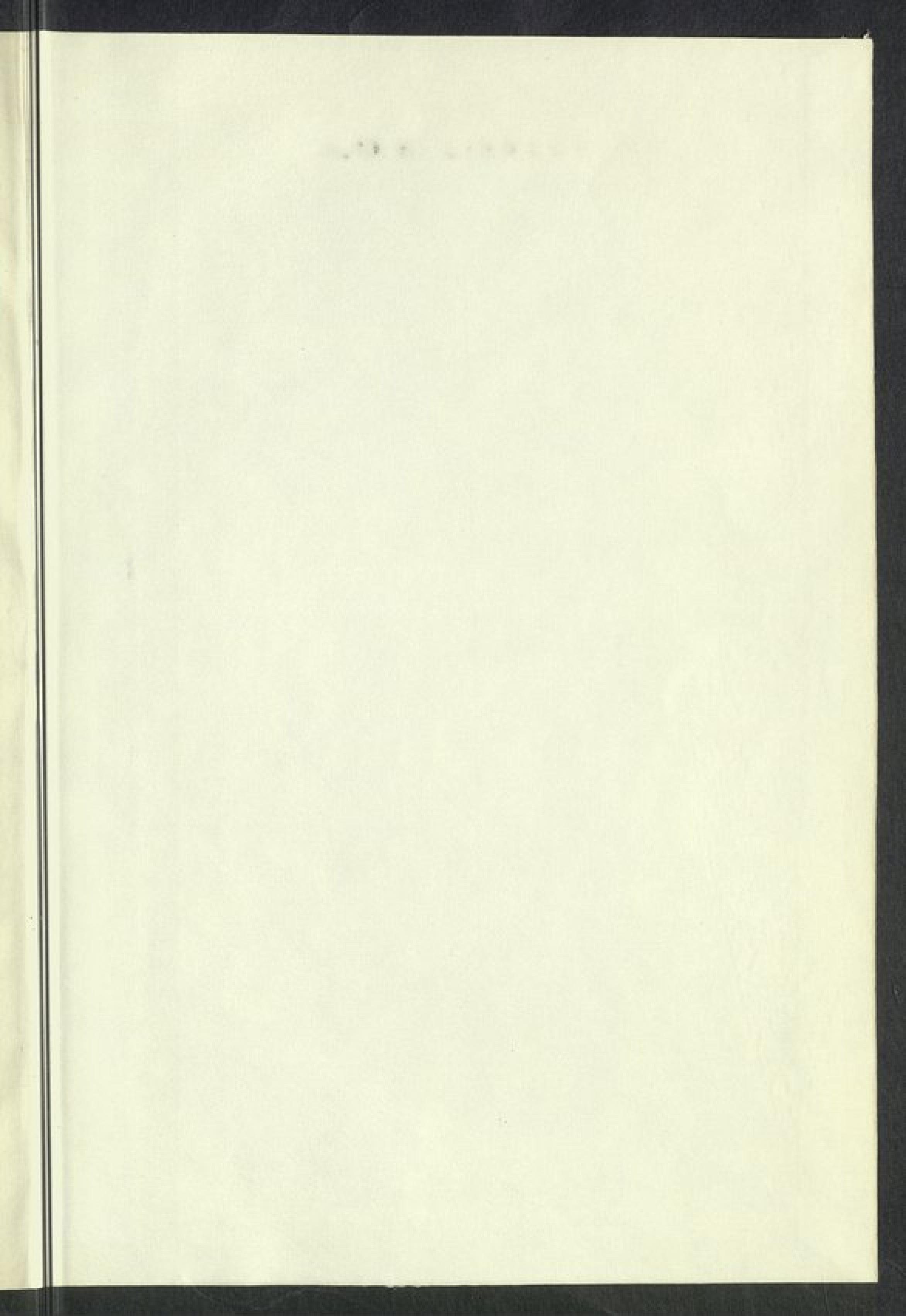
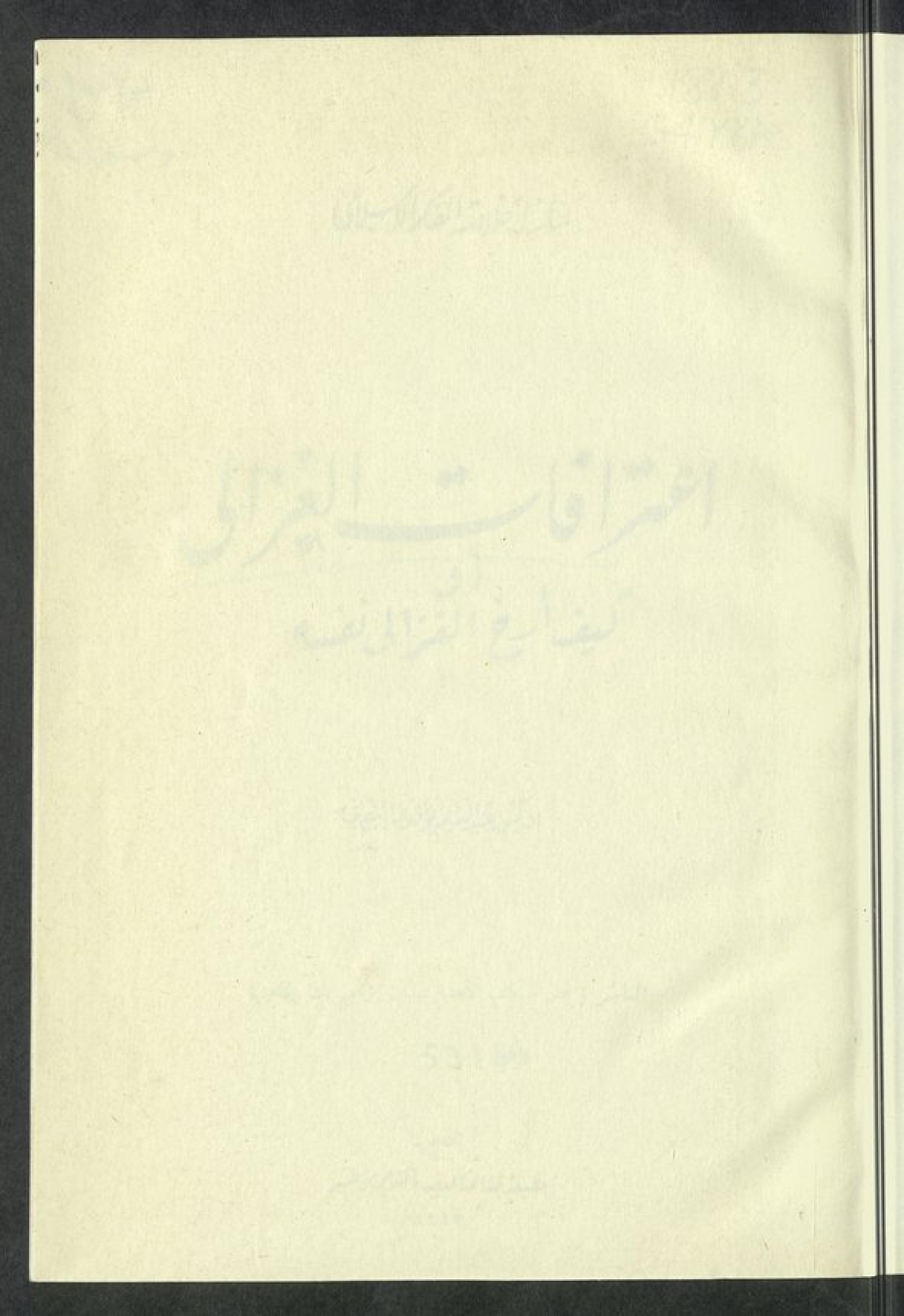
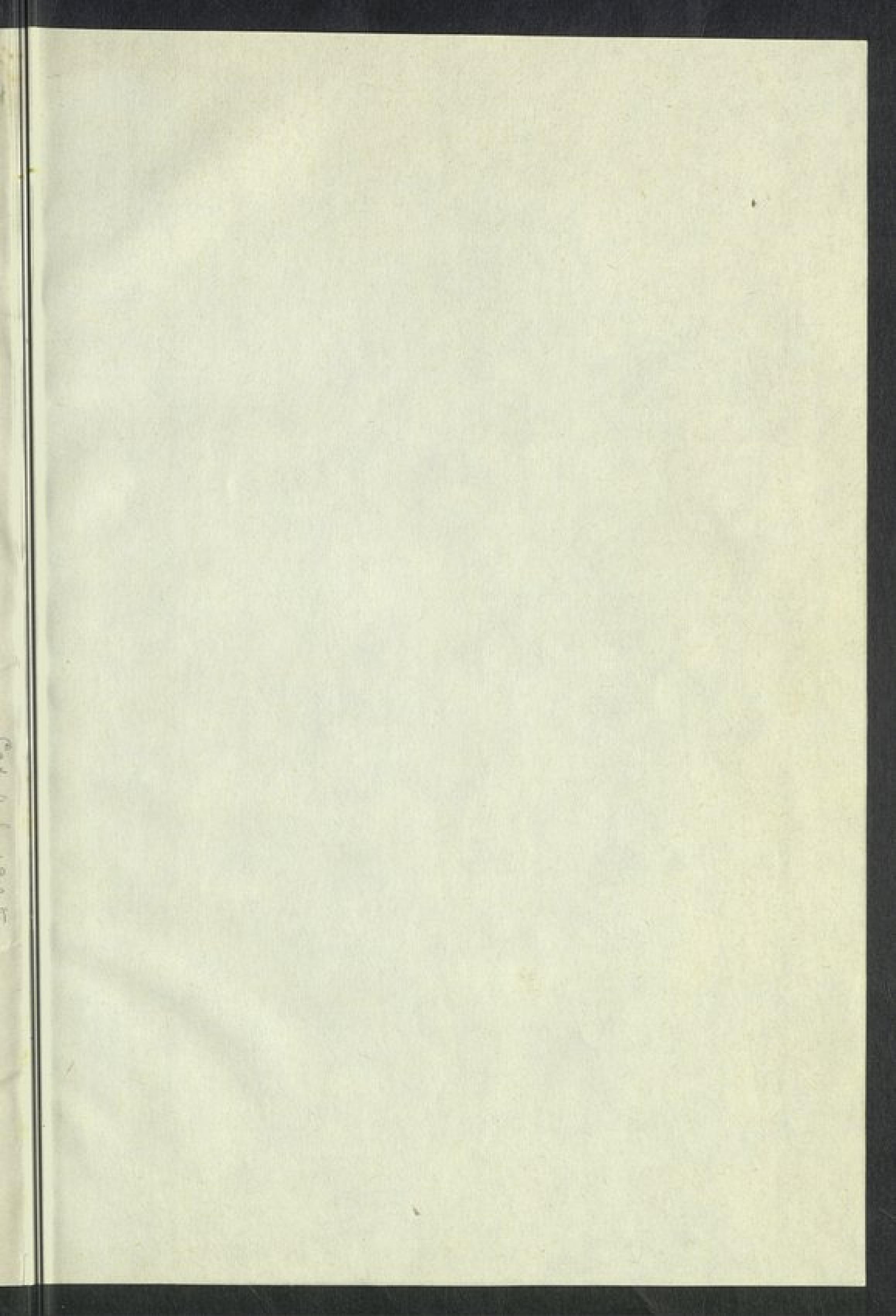








سلسلة خلاصة الفكر الإسلامي

# اعترافات الغزالي
## أو
## كيف أرخ الغزالي نفسه

الدكتور عبد الدايم أبو العطا البقري

الناشر: دار الكتب الأهلية بميدان إبراهيم باشا بالقاهرة



القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٤٣

# الفهرس

صفحة



## تعريف ، أو : جواب وسؤال

### ا — جواب ؟...



### ب — سؤال ؟؟؟

# الباب الاول

## ا — لماذا ألف الغزالى المنقذ من الضلال ؟

## أو : لماذا قدم الينا اعترافاته ؟

صفحة



## ب — كيف درس الغزالى العلوم المختلفة ؟



## ح — كيف مجد العلوم ، وكيف أعلن الشك ، وكيف اعتصم باليقين ؟

# الباب الثانى

## الشك بين الغزالى وديكارت

ا — شك الغزالى وايمانه :



ب — شك ديكارت وايمانه :

صفحة

ح — شك الغزالى وديكارت وإيمانهما :



# الباب الثالث

## كيف بحث الغزالى عن الحق ؟ وكيف نقد علم الكلام وزيفه ؟

# الباب الرابع

## دراسة الغزالى الفلسفة، وتسفيهه المتفلسفين

### ا — تاريخ هذه الدراسة كما اعترف به الغزالى :



### ب — تحليل هذه الاعترافات :

# الباب الخامس

## مجادلة الغزالى مذهب التعليمية

صفحة

صفحة

# الباب السادس

## الغزالى والصوفية

### ا — اعترافات الغزالى الصوفية :

### أو لماذا اعتزل نشر العلم ببغداد ؟ وعاد الى نشره بنيسابور ؟

صفحة

صفحة



ب — كشف النقاب عما فات وتصويب نحو ما هو آت ؟

الصفحة



## حـ — قصة الغزالى الصوفية كما هى الحق والواقع ؟

صفحة

صفحة

# الباب السابع

## اعتذارات

### ا — الاعتذار الأول ، وهو اعتذار غير مقبول .

صفحة



### ب — الاعتذار الثانى ، وهو اعتذار مقبول .

صفحة

## تقديم

حين أديت امتحان الدكتوراه أول مرة بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ ، ثار الجمهور فى ساعات الامتحان على عبارات رآها تمسّ الغزالى ، وتغضّ من مقامه الجليل ، وزاد فى ثورة الجمهور غضبة أعلنها فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد اللبان — طيّب الله ثراه — وكان من شهود الامتحان .

ثم عادت الثورة ، حين ظهر كتاب « الأخلاق عند الغزالى » . وتنقّل أوارها بين الجرائد والمجلات فى أكثر البلاد العربية ، وما زالت تلك الثورة تلاحقنى إلى اليوم ، فلن أنسى أن جماعة من علماء بغداد ، صرّحوا بأن هجومى على الغزالى يصدّهم صدًّا عن التسليم علىّ ، يوم كنت ضيف العراق فى سنة ١٩٣٨ .

ومنذ أيام قدّم إلىّ « الدكتور أبو العطا » مؤلفه الجديد عن « اعترافات الغزالى »[١] ، فقرأته فى ساعة واحدة ، ثم قررت رده إليه ، مشفوعاً بالملام ، لأنه تناول الغزالى — كما أحسست أول وهلة — بما يغض من مقامه الجليل .

---

(١) وهو الكتاب الأول باللغة العربية ، والخامس من سلسلة خلاصة الفكر الإسلامى التى يصدرها مؤلف هذه الاعترافات حيث طبع منها أربعة كتب ، جميعها باللغات الأجنبية « انظر الوجه الرابع من الغلاف » .

ثم رجعت إلى نفسى فقلت : ما الذى يمنع من أن تكون المقدمة موازنة بين ما قال المؤلف فى الغزالى ، وما قلت فيه ؟

ألا تكون هذه فرصة لترضية روح الغزالى ، وقد قيل ... وقيل إنى أسأت إليه ؟

وما هى إلا نظرات فى كتاب « الأخلاق عند الغزالى » حتى رأيت أن هجوم المؤلف على الغزالى صورة من هجومى عليه فيما يتصل بالاعترافات ، وعلى الأخص فيما يتعلق بالموازنة بينه وبين ديكارت ، ففيم كانت ثورتى إذاً على المؤلف ، مع أنى سبقته إلى ذلك الهجوم بأعوامٍ طوال ؟

يظهر أن فينا جميعاً نزعة إلى مسالمة القدماء ، وهى نزعة لا نتحرر منها إلا حين نحاول الاعتصام بسلطان الفكر والمنطق والعقل .

ويظهر أيضاً أن لروح الغزالى قوة تقهرنا على التعصب له من حين إلى حين .

وقد اعتذر المؤلف عن الغزالى كما اعتذرت من قبل ، ومع هذا فمن المؤكد عندى أن الغزالى لو بُعث لأعلن صداقته لمن جادلوه على نحو ما جادلناه ، لأن خصومتنا للغزالى ليست من جنس خصومة معاصريه — وكانوا فى الأغلب من الحاقدين — وإنما هى خصومة كريمة مصدرها الشوق إلى معرفة الحق بوزن ما ترك ذلك الباحث الكبير من أقوال وآراء .

فى المؤلَّف الجديد الذى أكتب له هذه المقدمة، عيبٌ واحد: هو أن المؤلف «الدكتور أبو العطا» يفترض أن جماهير القراء تعرف تاريخ الغزالى بالتفصيل، ولم يبق إلا نقد الاعترافات. وذلك فى رأيى عيبٌ جميل، فما يجوز أن نفترض الطفولة الأبدية فى قراء اللغة العربية، ولعل فيهم ألوفاً يعرفون من تاريخ الغزالى أشياء وأشياء!

والكتاب كله مبنىّ على تزييف اعترافات الغزالى، وجعلها صورية لا حقيقية، وقد دار المؤلف حول هذا الغرض بأسلوب ملفوف، مراعاة لعواطف القارئين، ولم يفته أن ينص فى ذيل الصفحة الثامنة على أن ملاحظاته المتفرقة:

«لن تنقص من قيمة الغزالى العامية، ولن تغض من كرامته الشخصية بأى حال، وإن بدا للقارئ المتعجل عكس ذلك».

وأقول: إن المؤلف كان يستطيع الاستغناء عن هذا الاحتراس لأن البحث العلمى لا يعرف التحرز فى الكشف عن الحقائق، ولأن كرامة الغزالى الشخصية ليست أعزّ من كرامة العلم، وهو من كبار الذين أفنوا أعمارهم فى البحث عن الحق.

ومن حسن الحظ أن المؤلف لم يتحرز فى مجادلة الغزالى، فمضى فى طريقه غير هيّاب. ولعل رسالته الجديدة هذه تهيج المتشيعين للغزالى، فتسوقهم إلى أبحاث فى الرد عليه.

ليتهم يفعلون! فقد طال ركود الدراسات الفلسفية، وحُرِمت من النفع الذى يثيره الجدال.

ولكنى أسبق أشياع الغزالى إلى مناصرته فأقول :

هل كان يجب على الغزالى أن يخفى ما يساوره من القلق بسبب عجزه عن الوصول إلى الحقيقة ؟

هل كان يجب على الغزالى أن ينكر تعلقه بالدنيا والأهل والأبناء ، لتصح خلوته الصوفية ؟

هل كان يجب أن تكون اعترافاته حاوية لجميع شؤون حياته بالتفصيل لتعفيه من تهمة التزييف ؟

أنا أعتقد أن الغزالى صادق فى كل ما رواه ، حتى فى التحرز الذى أوجب كتمان بعض الشؤون ... وفى بعض الفضائل السلبية ما يوازى قوة الفضائل الإيجابية ، لو نظرنا بعين الإنصاف .

إن من أعجب العجب أن نرى اغتياب الغير رذيلة تهوى بصاحبها إلى أعمق دركات الجحيم ، ولا نرى من الرذيلة أن نغتاب أنفسنا بعرض مساوئها على الناس !!

إن تحرز الغزالى فى بعض الاعترافات دليل على أنه رجل سليم Normal وأنا أذهب إلى أبعد من ذلك ، فأقرر أن رضا الغزالى عما انتهى إليه شاهد على قوة الثقة بالنفس ، وقد أيّد التاريخ هذا المعنى ، فمكّنه من الوثوب فوق مراحل التاريخ ، وستنقضى أزمانٌ وأجيال قبل أن ينال روح الغزالى شىء من الخمود

إن أكثر اللغات معطرة باسم الغزالى ، مع أنه فى اللغة العربية من المظلومين ، فقد جنت شهرته بالتصوف على قيمته العلمية ، وإلا

فمن الذى يعرف أن أبحاثه فى المنطق هى خير ما كُتب فى اللغة العربية ؟

ومن الذى يعرف أنه ذلّل اللغة التى يُكتب بها علم الأصول ؟

ومن الذى يعرف أن أبحاثه فى الفقه هى خير ما أُثر عن الشافعية ؟

لا يسوز الغزالى إلا أن يكون له تلاميذ روحيون ، ونحن تلاميذ ذلك الإمام الجليل ، وسنخدمه بتشريح ما خلف من أفكار وآراء ، لنخلق له أصدقاء ، فتقام له مدرسة عامية فى كل إقليم ، ويتألق اسمه من جديد فى سماء المعقول والمنقول .

والرسالة التى أكتب لها هذه المقدمة تحقق هذا الغرض ، فهى ثورة على اعترافات الغزالى — كما فهمها العلماء والمستشرقون — ثورة تنفض الغبار عن تراث صاحب الإحياء .

ليت ثم ليت !!

ليت الدنيا تسمح بأن نلتفت إلى الغزالى مصوّراً فى قُواه العلمية والروحية ، فقد خلق هذا الرجل آفاقا من الفكر والبيان ، وشغل الدنيا بعقله وروحه آماداً من الزمان .

إن النسخة التى اعتمدتُ عليها فى نقد كتاب الإحياء نسخة أثرية ، وقد سمعت أن الذى نشرها رجلٌ من بنى إسرائيل ! !

فمتى تعود سيطرة الغزالى العلمية والروحية ليتّجر فى نشر كتبه أقطابُ المال ؟

ومتى نرى فى القاهرة مكتبة لا تنشر غير مؤلفات الغزالى ، وما كُتِب فى نقد الغزالى ؟

لقد استبشرت حين رأيت « دار الكتب الأهلية بميدان إبراهيم باشا » . تنشر هذا المؤلَّف ، وكان المنظور أن المكاتب التى تقوم بذلك الميدان لا تعرف غير طرائف الأقاصيص .

مصر بخير وعافية ، جعلها الله إلى الأبد منارة الفكر والعقل والبيان

زكى مبارك

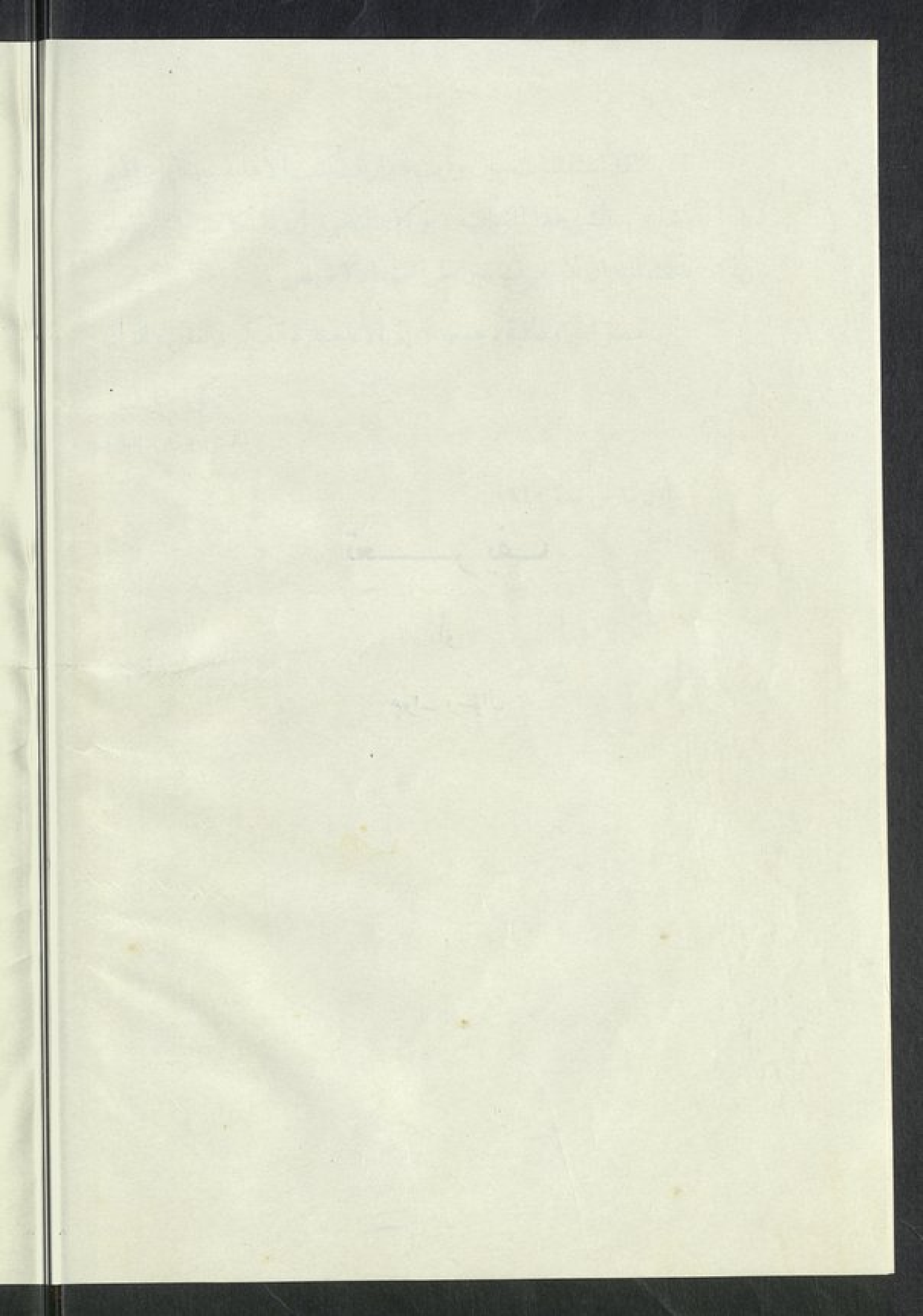
المفتش بوزارة المعارف

أول مارس سنة ١٩٤٣

# تعــــريف

أو

جواب وسؤال



## ١ — جواب ...

١ — أبوه

أما أبوه فقد كان فقيراً صالحاً غزال صوف وكان دائماً يجلس إلى الفقهاء . ويحترمهم ويحسن إليهم ، ويتمنى أن يكون له ابن مثلهم ، وكان عند ما يجلس إلى الوعظ وحلقات الصوفية يتأثر منهم ويرجو الله أن يرزقه بابن يشا كلهم [1]

٢ — أمه

أما أمه فلا يعرف من أمرها شيء إلا أنها توفيت وهو صغير .

٣ — أخوه

أما أخوه الأكبر منه سنا ، فقد انخرط فى سلك الصوفية شابا واختلى بنفسه ودخل بغداد وازدحم الناس على دروسه وكان دائماً ينصح أخاه الأصغر هذا بقوله :

إذا صحبت الملوك فالبس ... من التوقى أى ملبس
وادخل إذا ما دخلت أعمى ... واخرج إذا ماخرجت أخرس

٤ — الوصى عليه

أما الوصى عليه وعلى أخيه الأكبر هذا فقد كان رجلا صوفياً وصاه عليهما أبوهما قبل موته .

وهو الذى قال لهما عند ما تعذر الإنفاق عليهما .

« اعلما أنى أنفقت عليكما ما كان لكما وأنا رجل فقير ليس لى مال فأواسيكما به . وأرى أن تلجآ إلى مدرسة كأنكما من طلبة العلم

(١) ص ١٠٢ جـ ٢ طبقات الشافعية الكبرى للسبكى

فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما . » ففعلا وكان ذلك سببا في تعلمهما [1]

٥ — هو نفسه

أما هو نفسه « الذى نقص له » فهو القائل « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » .

٦ — معلموه

أما بعض معلميه .

ففى صباه كان أحمد بن محمد الراذكانى الذى أخذ عنه طرفا من الفقه في طوس .

وفى شبابه عند ما سافر إلى نيسابور ليتلقى العلم بنظاميتها كان أمام الحرمين أبا المعالى الجوينى الأشعرى السنى حيث كان يدرس بها . فدرس عليه المنطق والفقه والأصول والجدل . وظل معه بنيسابور إلى أن توفى سنة ١٠٨٥ م — ٤٧٨ هـ [2] .

٧ — اتصاله بالوزير نظام الملك

وبعد وفاة أستاذه أمام الحرمين هذا ، خرج من نيسابور وسنه ثمان وعشرون سنة إلى العسكر وهى بلدة قريبة منها .

وهناك تعرف إلى الوزير نظام الملك مؤسس المدارس النظامية بالعراق [3]

---

(١) اتحاف جـ ١ ص ١٧

(٢) اتحاف جـ ١ ص ١٧

(٣) هو أبو على بن الحسن بن على بن إسحاق الطوسى ( ٤٠٨ — ٤٨٥ هـ ) ، وزير السلطان السلجوقى ألب ارسلان ثم ابن ملكشاه إذ مكث لهما وزيراً حوالى ثلاثين سنة .

هذا الوزير ما كان يحترم إلا أدعياء العلم وفقراء الصوفية ، ولما سئل عن سبب ذلك قال :

« إن هؤلاء إذا قربتهم منى أثنوا علىّ بما ليس فىّ » .

٨ — اختياره مدرساً بنظامية بغداد

ظل ذلك الشاب الذى نترجم له يختلف إلى مجلس نظام الملك ويتدخل فى المناقشات التى تحدث فى ذلك المجلس .

وأخيراً بعد ست سنوات وجد الوزير نظام الملك فى ذلك الشاب ما يتفق ورغباته وميوله ، فولاه التدريس بنظامية بغداد ١٠٩١ م — ٤٨٤ هـ وكانت سنه حينئذ ٣٤ سنة فزاول التدريس بها ونال شهرة واسعة « لقوة شبابه وفصاحة لسانه ، ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة » [١] .

---

(١) هذه الفقرات جميعها « جواب وسؤال » ملخصة من الفصل الثانى ص ١٣ من الكتاب الثالث فى السلسلة وهو طبع القاهرة سنة ١٩٣٩ La Pensée Philosophique d,Algazali. وذلك للمؤلف نفسه .

## ب – سؤال ؟؟؟

٨ – أسئلة أو نقاط الاعتراف

أما لماذا ترك التدريس بنظامية بغداد وبعد عشر سنوات أو تزيد رجع إلى التدريس بنظامية نيسابور ؟؟

أما لماذا ترك العراق واختلى بالشام عشر سنوات أو تزيد ثم رجع إلى العراق ثانية ؟؟

أما لماذا حمل على الفلسفة وسفه المتفلسفين ؟؟

أما لماذا ناهض الباطنية وكتب ضد التعليميين ؟ ؟

أما قوله « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله » فلا ندرى هل كان قوله حقاً وصدقا ؟ ؟ أو الحق والصدق أنه طلب العلم لغير الله وظل ينشره ويطلبه لغير الله كما بدأه ؟؟؟

أما الإجابة عن ذلك كله فسيقصها علينا هو نفسه فى اعترافاته التى سجلها بقلمه والتى سطرها فى كتاب له وهو « المنقذ من الضلال والموصل إلى ذى العزة والجلال » والتى سنتكلم عنها باسهاب فى الفصول الآتية .

أما من هو ذلك الصبى – التلميذ – الشاب – الأستاذ – الفيلسوف – الصوفى – المعترف ؟؟

فهو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالى الفارسى الأصل والمولود فى ٤٥٠ هـ – ١٠٥٨ م بطوس .

والمتوفى فى ٥٠٥ هـ – ١١١٢ م بطوس أيضاً .

# الباب الاول

## ا — لماذا ألف الغزالى المنقذ من الضلال ؟
## أو لماذا قدم الينا اعترافاته ؟

١ — سبب تأليفه المنقذ
٢ — الظروف التى قص الغزالى فيها تاريخ حياته
٣ — السبب المباشر فى إذاعتـه تاريخ حياته

## ب — كيف درس الغزالى العلوم المختلفة ؟

٤ — كيف درس العلوم ولماذا ؟
٥ — لماذا طرح التقليد ظهريا ؟
٦ — تحديد الحقيقة ، أو العلم اليقينى

## ح — كيف جحد العلوم وكيف أعلى الشك وكيف اعتصم باليقين ؟

٧ — هل الحواس وسائل العلم اليقينى !
٨ — هل الأوليات وسائل العلم اليقينى ؟
٩ — الأحلام بين الحقيقة والشك
١٠ — الشك يسـيطر على الغزالى
١١ — اليقين يصرع الشك
١٢ — نور المعرفة واليقين

## ١ ـ لماذا ألف الغزالى المنقذ ؟

## أو لماذا قدم إلينا اعترافاته ؟

١ ـ أما بعد

«أما بعد . فقد سألتنى أيها الأخ فى الدين ، أن أحكى لك ما قاسيته فى استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع من حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما احتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين لدرك الحق على تقليد الأمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته أخيراً من طريقة التصوف ، وما انجلى فى تضاعيف تفتيشى عن أقاويل الخلق من لباب الحق ، وما صرفنى عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ، وما دعانى إلى معاودتى بنيسابور بعد طول المدة .

---

ملاحظات :

١ ـ معظم العبارات المنصوص عليها بين قوسين والتى نقلناها من كلام الغزالى فى المنقذ فيها شىء من التصرف اللفظى الذى لا يمس المعنى المراد لقائله بأى حال .

٢ ـ اعتمدنا فى نقل هذه العبارات على النسخة المطبوعة بمطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٤ والتى طبعتها شعبة الفلسفة بها بعد أن تصفحنا جميع طبعات المنقذ فوجدنا أنها أصحها وأدقها .

٣ ـ أرجو القارىء ألا يتعجل فى تكوين فكرة ما عن الغزالى حتى يأتى على جميع هذا البحث الذى اعتقد أن كل باب منه وكل فقرة فيه تكمل الأخرى ، وهذه النقاط مجتمعة تكون فكرة لن تنقص من قيمة الغزالى العلمية ولن تحط من كرامته الشخصية بأى حال وأن بدا للقارىء المتعجل عكس ذلك .

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك بعد الوقوف على صدق رغبتك، وقلتُ مستعيناً بالله ومتوكلا عليه، ومستوفقاًمنه، وملتجئاً إليه ... ... .. ... اعلموا ... ... ... ... ...»[1].

٢ — الظروف التي قص الغزالي فيها تاريخ حياته

بهذه الكلمات بدأ الغزالي يقص علينا تاريخ حياته الفكري في كتابه «المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذي العزة والجلال».

وقد كان ذلك حول الأيام الأخيرة من سنة أربعمائة وتسعة وتسعين هجرية، أو الأيام الأولى من السنة التي تليها.

وبعد أن انتهى فعلا من تآليفه الفقهية والأصولية، ومن الرد على التعليمية والفلاسفة، ومن الدعاية والنشر لتقاليد الصوفية وأبحاثهم، وبعد أن أودع كل علمه إحياءه الخالد.

وبعد أن تخطت سنه الخمسين، وقبل أن تصعد روحه بأربع سنوات إلى الرفيق الأعلى.

٣ — السبب المباشر في إذاعته تاريخ حياته

وســـواء أسأله حقيقة أخ له في الدين حكاية ما قاساه في استخلاص الحق وبيان ما صرفه عن نشر العلم ببغداد، وماذا دعاه ثانية إلى نشره بنيسابور و . . .

أم افترض هو أن هناك سائلا قد سأله هذا السؤال، فهذا فضلا عن أنه عرض للفِكَر التي يحتويها الكتاب مرتبة كترتيب الكتاب نفسه، فهو على كل حال يدل على أن تطوره الفكري وسيره العلمي فيه بعض الغموض الذي يحتاج إلى شيء من

(١) منقذ ص ٣ و ٤ .

التصويب والإيضاح ، حتى يرد ما وجه إليه من النقد ، « كما يفهم ذلك من سؤاله السابق » ، أو ما قد يُوجّه إليه فى المستقبل .

سيما أن الناس جميعاً قد رأوه يترك التدريس بنظامية بغداد ، ويعتزل الناس عشر سنوات أو تزيد .

ورأوه أيضاً أنه بعد هذا الاعتزال يرجع إلى نيسابور ليقوم بتدريس تلك العلوم نفسها .

والواقع أن هذه الحادثة ، حادثة رجوعه إلى التدريس بنيسابور ، « وهى آخر الحوادث التى سجلها فى المنقذ » كانت هى السبب فى تأريخه نفسه وفى تسجيله اعترافاته ، أو بعبارة أدق كانت هى السبب المباشر لكتابة « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » .

## ب ـ كيف درس الغزالى العلوم المختلفة ؟

٤ ـ كيف درس الغزالى العلوم ولماذا ؟

يحدثنا الغزالى بأنه :

« من المراهقة إلى الآن ، أى من قبيل العشرين إلى الخمسين وهو فى حرب وجلاد ، فهو يقتحم بحار العلوم ، ويخوض غمارها خوض الجسور ، ويتوغل فى كل مظلمة ، ويتهجم على كل مشكلة ، ويتقحم كل ورطة ، ويتفحص عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشف أسرار كل مذهب »[١] .

« فقرأ للباطنية ، وناقش الظاهرية ، وناضل الفلاسفة ، وأتى على كلام المتكلمين ، وحرص على تعرف أسرار المتصوفين[٢] .

لماذا كل هذا ؟

يجيب الغزالى :

« بأنه يريد أن يميز بين المحق والمبطل ، بين المتسنن والمبتدع »[٣] .

« وبأن التعطش إلى درك الحقائق « حقائق الأمور » دأبه

(١) منقذ ص ٥ .
(٢) منقذ ص ٥ و ٦ .
(٣) منقذ ص ٥ .

وديدنه غريزة وفطرة وضعتا من الله فى جبلته ، فليس له فيه حيلة واختيار »[1] .

ويحدثنا أيضاً بأنه :

٥ — لماذا طرح الغزالى التقليد ظهريا ؟

« عند ما وجد نفسه اضطراراً لا اختياراً متعطشاً إلى درك الحقائق ، وبأنه عند ما رأى صبيان النصارى ينشأون على التنصر ، وغلمان اليهود يدرجون على التهود ، وفتيان المسلمين يشبون على الإسلام ، وعند ما سمع حديث محمد عليه السلام « كل مولود يولد على فطرة الإسلام ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه[2] » .

ثم يحدثنا بأنه :

« عند ما رأى كل هذا انحلت عنه رابطة التقليد ، وتكسرت عليه العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا ، وتحرك باطنه إلى طلب حقيقة الفطرة الأصلية ، وإلى معرفة حقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، وإلى التميز بين هذه التقليدات التى أوائلها تلقينات »[3] .

٦ — الحقيقة أو العلم اليقينى

وهنا يبدأ الغزالى بتحديد الحقيقة التى ينشدها وبيان العلم اليقينى الذى يريد أن يعتصم به .

هنا يظهر له :

« أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبق

(١) « منقذ ص ٧ » .
(٢) « منقذ ص ٧ » .
(٣) « منقذ ص ٧ و ٨ »

معه ريب ، ولا يقرب منه غلط أو وهم ، حتى ولو قلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعبانا ، دليلا على عدم صحته ما تطرق إلى المؤمن به ظل من الشك أو حفيف من الانكار » .[1]

وبعد أن يصل الغزالى إلى هذا التحديد يعلن للملأ أجمع :

« ان كل الحقائق التى لا يعلمها على هذا النحو من اليقين هى حقائق لا ثقة بها ولا أمان معها » .[2]

أو بعبارة أدق هى ليست فى نطاق العلم اليقينى بأى حال .

---

(١) « منقذ ص ٨ »
(٢) « منقذ ص ٩ »

## حـ - كيف جحد العلوم؟
## وكيف أعلن الشك؟
## وكيف اعتصم باليقين؟

١ - هل الحواس وسائل العلم اليقينى ؟

يحدثنا الغزالى بأنه :

بعد تحديده العلم اليقينى أخذ يفتش عن علومه التى لها صفته والتى تدخل فى نطاقه فوجد « أن الحسيات والضروريات هى التى يمكن أن تكون لها هذه الصفات »[1].

ولكنه يتشكك فيها قائلا :

« لماذا لا تكون الحسيات غير موثوق بها كالتقليديات سواء بسواء وهى التى طرحتها ظهريا ؟

وهل حقا يمكن أن يتطرق إليها الشك ؟

نعم وفعلا تطرق إليها بل وأخذ يتسع فهو إذا تأمل أقوى حواسه وهو البصر وجده يحس بأنه ينظر إلى الظل فيراه واقفاً بينما هو بالمشاهدة والتجربة يتحرك تدريجاً ، ويحس بأنه ينظر إلى الكوكب فيراه صغيراً فى مقدار دينار بينما الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض فى المقدار »[2].

---

(١) « منقذ ص ١٠ »
(٢) « منقذ ص ١١ »

يستنبط الغزالى من هذا :

« ان أمثال هذه المحسوسات التى كانت وسائل علمه بها وحكمه عليها حواسه لا يمكن أن تدخل فى نطاق العلم اليقينى إذ جاء حاكم العقل فكذبها تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته »[1] .

٢ — هل الأوليات وسائل العلم اليقينى ؟

وهنا يقفز الغزالى إلى النتيجة الآتية قائلا :

« أما وقد بطلت الثقة بالمحسوسات فهل يمكن أن توجد ثقة بالعقليات المؤسسة على الأوليات كقولنا العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والإثبات لا يجتمعان .؟! »[1] .

ولكن المحسوسات تنهض قائلة له :

بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ؟

أما كنت واثقاً بى فجاء حاكم العقل فكذبنى ؟ ولولا حاكم العقل لاستمررت على تصديقى !!؟

ألا يمكن إذاً أن يكون وراء إدراك العقل حاكم آخر إذا تجلى كذب العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الحاكم « الإدراك » لا يدل على استحالته ؟! »[2] .

٣ — الأحلام بين الحقيقة والشك

لم يحر الغزالى جوابا عما سبق ، بل زاد شكه وتأيد بما يراه فى المنام من الأحلام والخيالات التى يعتقد ثباتها واستقرارها ، وعند

---

(١) « منقذ ص ١١ »

(٢) « منقذ ص ١١و١٢ »

استيقاظه يعلم أن جميع ما رآه فى منامه وهم وخيال .

وهنا يسائل الغزالى نفسه :

« بم تأمن أن تكون هناك حالة « هى غير موجودة لسبب ما » نسبتها إلى يقظتك كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالنسبة إليها ، وعلى ذلك فكل ما تعتقده فى يقظتك بحس أو بعقل هو حق بالإضافة إلى حالتك الآن .

أما لو عرضت لك تلك الحالة « التى هى لسبب ما غير موجودة الآن » لتيقنت أن جميع ما توهمته بعقلك هو خيالات لا أصل لها .

وهنا يفرض الغزالى أن تلك الحالة هى إما أن تكون .

ا — الحالة التى يدعيها الصوفية « حالة الجذب » Estasi فهم يزعمون حين تلابسهم تلك الحالة أنهم يشاهدون أموراً لا توافق هذه المعقولات .

ب — وإما أن تكون هى حالة الموت فمحمد عليه السلام يقول : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا هى نوم بالنسبة إلى الحياة الأخرى ، فاذا مامات الإنسان ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهدها الآن . ويقال له حينئذ « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » .[1]

٤ — الشك يسيطر على الغزالى

نعم جالت بفكر الغزالى الخواطر السابقه وانقدحت فى نفسه فحاول لذلك علاجا ، والعلاج لا يمكن إلا بالدليل ، والدليل لا يمكن

(١) « منقذ ص ١٢ و ١٣ »

ألا أن يكون مركباً من الأوليات ، وقد رأيت سابقاً أنها ليست في نطاق علمه اليقيني .

« أعضل الداء وشح الدواء فظل شهرين تقريبا وهو على مذهب السفسطة بحكم الحال لا بحكم المقال »[1] .

٥ — اليقين يصرع الشك

« ولكن بعد انتهى الشهران شفاه الله من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات والأوليات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين »[1] .

كيف شفي ؟

كيف دخلت الأوليات فى نطاق علمه اليقيني ؟

« لم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله فى قلبه »[2] .

« ذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف »[3] .

٦ — نور المعرفة اليقين

« ذلك النور هو الذى أراده إله المسلمين جل جلاله عند ما قال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام »[3] .

« ذلك النور هو الذى أراده نبي المسلمين عليه السلام عند ماسئل عن معنى الشرح فقال : « هو نور يقذفه الله فى القلب »[3] .

« ذلك النور علامته التجافى عن دار الغرور والأنابة إلى دار الخلود »[3] .

« ذلك النور هو الذى قال محمد عليه السلام فيه : « إن الله تعالى

---

(١) « منقذ ص ١٣ » (٢) « منقذ ص ١٣ » (٣) « منقذ ص ١٤ »

خلق الخلق فى ظلمة ثم رش عليهم من نوره »[1] .

« ذلك النور ينبجس فقط من الجود الإلهى »[1] .

« ذلك النور يجب الترصد له « فان لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها »[2] .

« من ذلك النور يجب أن يطلب الكشف[2] » ويرتجى العلم اليقينى وتفتقد الحقيقة والمعرفة Conoscensa .

هذا هو شك الغزالى ... وإيمانه كما روى ذلك هو نفسه . أما تحليله ونقده ، أما وجه الحق فيه ومدى الواقع لديه فاليك النقد وإليك التحليل .

---

(١) « منقذ ص ١٤ »        (٢) « منقذ ص ١٤و١٥ »

# الباب الثانى

## ا – شك الغزالى وإيمانه :

١ — ماذا دفع الغزالى لإيراد حكاية شكه ؟
٢ — من أين أتت للغزالى فكرة الشك ؟
٣ — مقدار تحويره فى الفكرة السفسطائية
٤ — هل نجح فى إيراد الأدلة على عدم ثقته بالمحسوسات ؟
٥ — هل نجح فى إيراد الأدلة على عدم ثقته بالأوليات ؟
٦ — هل حقيقة زادته الأحلام شكا على شك ؟
٧ — دوافع الغزالى إلى الافتراضات التى افترضها
٨ — لماذا أسند حكاية الشك فى « المستظهرى » إلى أصحابها ؟
٩ — الحلقة المفقودة التى وصلت بين شكه وإيمانه
« القفزة التى قفزها ليصرع الشك باليقين »
١٠ — كيف خرج الغزالى من المأزق الشكى ؟
١١ — من أين أتى للغزالى النور الذى أنقذه ؟

## ب – شك ديكارت وإيمانه :

١٢ — المراحل الستة التى سار فيها ديكارت حتى وصل إلى معرفة الحقيقة

## ح – شك الغزالى وديكارت وإيمانهما :

١٣ — مؤتلفات ومفترقات
١٤ — ميزان الحكم لدى الغزالى وديكارت
١٥ — كل من الغزالى وديكارت وليد بيئته
١٦ — الأحلام بين الغزالى وديكارت
١٧ — طفرة الغزالى ومنطق ديكارت
١٨ — الافتراضات بين الغزالى وديكارت
١٩ — وحدة التفكير بين الغزالى وديكارت
٢٠ — الغزالى متكلم
٢١ — نور الغزالى فكرة صوفية
٢٢ — ورود هنا وأشواك هناك
٢٣ — أشواك لاورود فيها
« استنباطات تنفى أن الغزالى قد شك »

## ١ ـ شك الغزالى وإيمانه

١ — ماذا دفعه لايراد حكاية شكه ؟

أما لماذا أورد الغزالى حكاية الشك مفتتحاً به اعترافاته التى قصها فى المنقذ فلأن طريق المفكرين ونهج العلماء الأحرار هو عدم التقيد بآراء السابقين اللهم ألا ما وافق أراءهم وحينئذ يعتنقونها لا على أنهم لها مقلدون بل لأنهم لما فيها موافقون فكأنهم لها مبتكرون .

وهكذا يريد الغزالى أن يدلل على أن بحثه فى العلوم ووصوله إلى الحقيقة وأيمانه بالمعرفة إنما كان عن بحثه الخاص ، وتفكيره الشخصى واستقلاله الفكرى فلم يتقيد بشتى المعارف ومختلف العلوم بعد أن أتى عليها وعرفها ، فتدرج من حجج المتكلمين إلى تعاليم التعليمية « الباطنية » ومن آراء الفلاسفة إلى لمحات الصوفية ، لم يقلد شخصاً ولم يتابع مذهباً ، وإنما طرح ظهريا كل هذه الحقائق ، واحتفر لنفسه طريقاً صخريا صلداً سار عليه حتى اعتصم بالحق ، ولاذ بالمعرفة واليقين .

ولكن هل أمكنه أن يقنعنا بأنه كان كذلك حقاً ؟

أو بعبارة أدق .

هل فكرة الشك التى حكاها الغزالى فى المنقذ نبتت فى نفسه

وبزغت من تفكيره ولم ينقلها عن غيره ؟

٢ — من أين أتت الغزالى فكرة الشك ؟

ليس من ريب فى أن فكرة الشك فى الحقائق ، والتجرد من التقليديات والتلقينيات ، هى فكرة قديمة أساسها ما فى طبع الإنسان من طلب المعرفة لكل ما يجرى حوله ، ومن الجهل بها حينا ، ومن الشك فيها أحيانا ، ومن الوقوف على حقيقتها أخيرا .

أليس الشك هو المرحلة الوسطى لجميع الحقائق ؟

أما فكرة تصنع الشك وافتراضه ، واعتناقه كمذهب من مذاهب التفكير ، وكوسيلة من وسائل الوصول إلى المعرفة ، فهى فكرة إغريقية قديمة نادى بها السفسطائيون ، واخضعوها لمقاييس التفكير ، ومعايير الفلسفة .

ليس فى كل هذا ريب .

ولكن لم لا يكون الغزالى قد وصل إلى نظرية الشك هذه بفكره المستقل ورأيه الخاص ؟

ولم لا يكون اتفاقه مع السفسطائيين فى الفكرة إنما هو من توافق الآراء وتماثل الأفكار ؟

نعم إن الغزالى نفسه قد كفانا مئونة البحث والتخمين ، فقد دلنا على أنه قد عرف حكاية الشك ، وعرف أن السفسطائيين أصحابها ، وعرف أنه نقلها عنهم ، بل وكتبها فى أحد كتبه ، ونقدها قبل أن يكتب كتابه المنقذ هذا ، وقبل أن يقصها علينا قصا نلمس منه أنه هو المبتكر لها المخترع لأجزائها .

فهو فى كتاب « فضائح الباطنية »[1] طبعة ليدن سنة ١٩١٦ بإشراف "J. Gold Ziher" يقول :

« إن السفسطائيين أنكروا الضروريات وخالفوا فيها، وزعموا أنها خيالات لا أصل لها، واستدلوا على هذا الزعم بأن أظهر الضروريات هى المحسوسات ومع ذلك فلا يمكن القطع بها .

فمهما شاهدت شخصاً وكلمته فلا يمكن أن تكون مشاهدته وكلامه دليلا ناطقاً على حضوره، إذ لعلك رأيته فى المنام، وكم من منام يراه الإنسان ويقطع به، ولا يتمارى مع نفسه فى تحققه ثم ينتبه على الفور فيتبين أنه لا وجود له »[2] .

٣ — مقدار تحويره فى الفكرة السفسطائية ؟

نعم أن الغزالى قد أخذ فكرة الشك هذه كما رأيت وحوّر فيها ونسقها، فناقش اليقين الذى تحمله المحسوسات، ثم الذى تحمله الأوليات الضرورية، مدعما رأيه بما يراه الإنسان فى المنام، وهنا يحس الغزالى أنه شاك فى جميع الحقائق، وأنه عاجز عن الوصول إلى اليقين، فيسمى تلك الحالة « حالة الشك المؤسة » مرضاً .

وأخيراً يشفيه الله من هذا المرض .

حكى الغزالى كل ذلك فى أسلوب جزل فخل، خلاب مؤثر، عاطفى أكثر منه عقلياً، مفحم أكثر منه مقنعاً .

٤ — هل نجح فى إيراد الأدلة على عدم ثقته بالمحسوسات ؟

فهاهو ذا يحملك على الأيمان بأن حاسة البصر خادعة، والمحسوس

---

(١) « بمكتبة الجامعة المصرية تحت رقم ٤٣٧٧ فلسفة »

(٢) « فضائح الباطنية ص ٢١ »

بها وهم وضلال ، لأنك ترى الظل واقفاً بينما هو يتحرك .

من أين عرف وقوف الظل ؟

يبصره الخاطف السريع .

من أين عرف تحرك الظل ؟

بنظره الهادئ الرزين ، بتجربته ومشاهدته المبنية على البصر المتئد والنظر المستديم .

وهذه التجربة أصبحت عنده ضرورة عقلية وقاعدة لا تبدل فيها ولا تحول .

أو بعبارة أدق كان حكمه الأول غير صحيح لأنه غير شامل ، وكان حكمه الثانى صحيحاً لأنه جد كامل .

أو أن الإحساس هو الذى خطأ الإحساس .

٥ — هل نجح فى إيراد الأدلة على عدم ثقته بالأوليات ؟

وأيضاً قياساً على الاستنباط الخاطىء السابق من أن هناك ضرورة عقلية وحاكماً عقلياً قد كذب حواسه «حاكمه الحسى» فأضحت هذه الحواس لا أمان لها فكيف يثق إذن بالضروريات العقلية ؟

افترض أنه ربما قد يوجد حاكم «لم يعثر عليه للآن» يكذب هذه الضروريات كما كذب حاكم العقل حاكم الحس .

وفضلا عن أن هذا افتراض محض يمكن أن يوجه إلى أية حقيقة فى الوجود ، وفضلا عن أنه يمكن افتراض حاكم آخر يخطىء الحاكم الذى افترضه ، وهكذا يتسلسل فرض هذا الحاكم إلى ما لا نهاية .

نعم أقول فضلا عن كل هذا فإن الغزالى بنى هذا الفرض على

أساس أنه عثر على حاكم عقلى كذب الحاكم الحسى .

مع أنك لمست أن هذا الحاكم العقلى هو حاكم حسى ، وأنه لم يكن هناك تصديق ثم تكذيب ، بل كان هناك حكم « حسى خطأ » وحكم حسى صواب ، وأن هناك حاكما حسياً خطّأ حاكما حسياً .

وهذا كله فضلا عن أنه هو نفسه يرد هذا الرأى السفسطائى فى فضائح الباطنية السابق الذكر مثبتاً أخيراً :

« ان قول السفسطائيين بالشك فى المحسوسات والضروريات يجب أن لا يشككنا فيهما وكذلك النظريات فإنها بعد وصولها من المقدمات تبق ضرورية لا يتمارى فيها كما فى الحسابيات[1] » .

٦ — هل حقيقة زادته الأحلام شكا على شك ؟

نعم هذه هى مشكلة الحاكم الحسى ، ومشكلة الحاكم العقلى ، أما مشكلة الأحلام فيعتقد الغزالى أن الأحلام زادته شكا على شك ، لأنه عاذا يأمن وجود حالة « اقترضها هو » تحيل ما رآه فى اليقظة ضلالا ، كما أحالت اليقظة ما رآه فى المنام خيالا .

ولكن هذه الحالة الفرضية كما قلنا لا بد أن يكون لها أساس ككل الإفتراضات تؤسس عليه ، ولابد أن يكون لها قياس ينتجها ، وهدف تتجه إليه .

ويظهر كما يفهم من كلام الغزالى ؛ أنه فرض تلك الحاله قياساً على افتراضه حالة الحاكم العقلى حينما عثر عليه فكذب به الحاكم الحسى ، وعلى افتراضه حالة لا وجود لها قد تكذب الحاكم العقلى أيضاً .

---

(١) « فضائح الباطنية ص ٢١ »

فهى كما ترى افتراضات أساسها غير صحيح ، لأنه كما سبق لايوجد حاكم عقلى ليكذب الحاكم الحسى ، وإنما وُجد حاكم حسىّ يكذب حاكما حسياً .

٧ — دوافع الغزالى إلى هذه الافتراضات

ولكن ما الذى دفعه إلى كل هذه الافتراضات ؟

هناك حقيقة كونتها من دراسة الغزالى :

وهى أنه على استعداد لأن يأخذ أية فكرة من الفِكَر ، شرعية أو فلسفية أو صوفية أو حتى سفسطائية كما هنا ، متى أحس بشبه حاجة إليها ، ثم يؤيدها بالأدلة ، ويؤكدها بالبراهين ، من أية نوع كانت ، وبأى أسلوب أتى إليه .

وجد نفسه فى حاجة إلى فكرة الشك التى عثر عليها عند دراسته الفلاسفة الأقدمين « السفسطائيين » فاستعملها ، ولكنه يريد أن لا يسندها فى المنقذ إلى قائليها ، كما أسندها إلى أصحابها فى كتابه المستظهرى « فضائح الباطنية » .

٨ — لماذا أسند حكاية الشك فى المستظهرى إلى أصحابها ؟

أما لماذا أسندها هناك ولم يسندها هنا ؟

فلأنه هناك كان يجادل ويناضل علماء اضطلعوا وتسلحوا بسلاح الفلسفة وهم الباطنية ، فلا يخفى عليهم أصل فكرة الشك إذا لم يسندها إلى قائليها ، بل اسنادها يؤيده ، وأخفاؤها يكشفه ويضعفه .

أما هنا فليس هو فى موضع نقاش ، بل هو يكتب ما يكتب فى المنقذ للناس جميعاً ، فأراد أن يوهمنا بأن نظرية الشك هذه من

تفكيره الخاص ، ولهذا فهو يوردها بدافع من نفسه ، ويورد كثيراً من الاعتراضات عليها ليناقشها ، وأخيراً يؤيد ما يريد بكلام الله ، وكلام الرسول ، وكلام الفلاسفة ، وكلام المتصوفة ! !

أقول : وجد نفسه فى احتياج إلى فكرة الشك ، ولكن :

كيف يعطيها الحياة ليناضلها ؟

وكيف يعطى نفسه القوة ليتغلب عليها ؟

نعم بالافتراضات أحياها كما رأيت .

وبالتصوف تغلب عليها كما سترى .

٩ — الحلقة المفقودة التى وصلت بين شكه وإيمانه

نعم بالتصوف تغلب عليها فها نحن نرى أن الغزالى بعد أن شك فى كل شىء ، حتى فى المحسوسات والمعقولات الأولية ، ومن باب أولى فى النظريات والمعقولات العالية ، وضاعف شكه وأكده حُلم المنام ورؤى الليل ، فمرضت نفسه وتاه شعوره ، ودام على ذلك شهرين كاملين ، لم يكتب فيهما عن شكه كلمة ، ولم يتحدث بما فى نفسه إلى متحدث ، يريد الطبيب ليعطيه الدليل ، ولكن الدليل لابد أن يكون من المحسوسات والأوليات ، وهى لديه سم زعاف .

بعد هذا ماذا يفعل الغزالى ليخرج من هذا المأزق الشكى الحرج ؟

بين قوسين

نعم إن من الخير الكثير لمن يريد أن يكتب عن الحالة النفسية لفرد ما ، أن يجتهد فى أن يلبس لبوس ذلك الفرد ، ويحيط نفسه

بظروفه ، أو على الأقل ليذكر هذه الظروف جيداً ، وليشعر نفسه أنه مغمور بها ، ثم يتركها « نفسه » حينئذ تتناهبها العوامل المختلفة ، والعوارض المتباينة ، ثم يتحدث .

وهنا لاشك فى أنه يكون أقدر على التحدث من أى شخص لم يحط نفسه بتلك الحالة ، ولم يغمرها بهذه الظروف والملابسات .

١٠ — كيف خرج الغزالى من المأزق الشكى ؟

أقول بعد هذا كيف خرج الغزالى من هذا المأزق الشكى ؟

نعم لتفرض أيها القارىء أنك الغزالى وهذه حالتك ، وقد خلقت هذا الشك فى نفسك وقويته ، فهل تسكت وتعجز ؟

محال .

لأن الغزالى حينئذ رجل الفكر ، و بطل الإسلام ، وحلال المعضلات .

هل يخرج من هذا الشك بمخرج الشرع ، فيلجأ إليه وهو المستمدة قوانينه ، وحقائقه من كلام الله ، وكلام محمد ، وأخبار أصحابه ، والتابعين ؟

محال أيضاً .

لأنه قد ترك التعليم ببغداذ ، وقال عن العلوم التى كان يدرسها حينئذ ، وأهمها الفقه والأصول و . . . « إنها غير مهمة وغير نافعة فى طريق الآخرة »[1]

هل يخرج بمخرج الفلاسفة ؟ .

---

(١) « منقذ ص ٦٣ »

جد محال أيضاً .

لأنهم الفئة التى كتب تهافته فى الرد عليها ، فشوش آراءها ، وسفه أحلامها .

لم يبق إذن إلا أن يخرج بمخرج الصوفية ، وهم الذين اعتزل لأجلهم العلم والناس عشر سنوات أو تزيد .

وهم الذين قال فيهم :

« إن طريقهم أقوم الطرق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع ، ليغيروا شيئاً من سيرتهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، فلن يجدوا إليه سبيلا ، إذ أن جميع حركاتهم وسكناتهم ، ظاهراً وباطناً ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة نور على وجه الأرض يستضاء به[1] » .

نعم إن جميع حركاتهم ، وسكناتهم ، مقتبسة من نور النبوة ، أى أن جميع أفكارهم وآرائهم يقينية ، بل أقوى من اليقين نفسه .

ولكن كيف يصل إلى يقينهم هذا ؟

ليس هناك من دليل عقلى يركبه ، ليخرج به من بلقع الشك واليأس ، فيقوده إلى جنة اليقين والإطمئنان !

السلسلة الفكرية والمنطقية مقطوعة بين الحلقتين !

الحلقة الأولى إثبات الشك فى كل شىء ، والحلقة الثانية إثبات اليقين فى كل شىء !

---

(١) « منقذ ص ٦٨ »

ولكن هل التصوف يعترف بالعقل، وبالمنطق، وبالفكر، وبالمقدمات، وبالنتائج ؟

كلا !! « فالعقل ليس كاشفا للغطاء عن جميع المعضلات »[1]

« ومن قصر الكشف والمعرفة على الأدلة المجردة، فقد ضيق رحمة الله الواسعة[2] ».

إذاً الباب مفتوح على مصراعيه، فليلج الغزالى رياض التصوف، ولو كان مدخلها كسم الخياط.

وفعلا يدخل الغزالى هذه الرياض، فيجد أن الله، أو نور الله بعبارة أدق، هو الذى يمكنه أن يكون هذه الحلقة المفقودة.

وهنا يؤذن فى الناس ؛ بأن الله قذف فى قلبه نوراً جعله يؤمن بالمحسوسات، وبالضروريات أيضاً.

١١ — ولكن من أين أتى الغزالى ذلك النور ؟

ولكننا نعيد السؤال الذى سألناه له عند ما انتهى إلى الشك فى كل شىء.

نعيده مستبدلين كلمة الشك بكلمة اليقين متسائلين :

هل فكرة اليقين المطلق هذه، أو بعبارة أدق، هل فكرة النور الذى قذفه الله فى قلبه، فأرجع إليه الإيمان، نبتت فى نفسه، ونزغت من قلبه، ولم ينقلها عن غيره ؟

نعم إننا سنجيب كما أجبنا سابقاً « سنرى ».

فها هو الغزالى يدلنا على أنه وهو فى العزلة حينما كان يقرأ

---

(١) « منقذ ص ٤٥ » (٢) « منقذ ص ١٤ »

للصوفية ، ويتحدث إليهم ، ويكتب عنهم أن قرأ للحارث بن أسد المحاسبي ، كما كتب هو نفسه فى إحيائه[1] :

« إن العقل نور يقذفه الله فى القلب به يستعد الإنسان لإدراك الأشياء » .

ويقول الغزالى أيضاً فى نفس الصفحة :

« وينكر المحاسبي أيضاً رأى من قال إنه «العقل» يتكون من مجرد العلوم الضرورية » .

نعم أى وربى أن الغزالى قد قال ما تقدم بالحرف الواحد !

إذن فالعقـــل الذى يريده الغزالى ليفهم به المحسوسات والأوليات ويطمئن إليها هو ذلك النور .

إذن ليستنقذ الغزالى به نفسه ، فيستلفه من كلام الصوفية ، ويقبض عليه بكلتا يديه ، ويقذف به فى قلبه ، فتعود نفسه إلى الصحة والاعتدال ، وترجع الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين .

وفعلا قد كان !!!

---

(١) « جزء ١ طبع ١٢٨٩ هـ القاهرة ص ٧٥ » .

## ب – شك ديكارت وإيمانه

« صورة سريعة لشك ديكارت »

١٢ – مراحل الشك الديكارتى

سار ديكارت فى تصوير شكه كما حكاه فى التأملات وفى المنهج السيرة الآتية :

المرحلة الأولى

١ – لاحظ ديكارت أنه تلقى طائفة من الآراء الخاطئة على أنها صحيحة ، فأراد التخلص منها ، ولكنه وجد أن ذلك أمر جليل وخطير ، ولهذا انتظر حتى بلغ سن النضج والقوة ، ليقوى على تنفيذ ذلك الأمر الجليل ، واحتمال هذا الشىء الخطير .

وأخيراً حرر نفسه من الأهواء ، والأفكار ، والمشاغل ، واعتزل الناس ، وعكف جديا على هدم أفكاره القديمة عامة [١] .

المرحلة الثانية

٢ – وبعد أن تحلل من هذه الأفكار ؛ أخذ ينظر من جديد ، فوجد أن أقوى ما يحصل عليه من المعلومات ، يأتى له عن طريق الحواس ، ولكنه جرّب أحياناً أن الحواس خادعة .

إذاً يجب عدم الركون إلى من خدعنا ، وعدم الاعتراف بما توصله لنا الحواس من الحقائق [٢] .

---

(١) « تأملات ص ٣٥ – ٣٦ » رقم ٢٧٧٩٨ فلسفة بمكتبة الجامعة المصرية .
(٢) « تأملات ص ٣٧ » .

المرحلة الثالثة

٣ — ولكن هل للحقيقة وجود ؟

يقول : إنى أرى فى نومى أشياء أعتقد أنها حقيقية ، بينما عند استيقاظى أجدها وهما وخيالا .

ولكنى أحسّ أن تأكدى حين المنام ، وثقتى بما رأيت ، يعادل ثقتى وتأكدى بما أراه فى اليقظة ، فأيهما الحقيقة وأيهما الوهم ؟[١] أليس ما نراه فى المنام هو شبه أو صورة لما نراه فى الحقيقة ؟

إذاً يجب الاعتراف بأن جميع الصور التى نراها فى أحلامنا ، حتى ولو كانت خيالية ، لها أساس بسيط من الحقيقة كبّره الوهم وخلق منه أنواعا ، وضخمه الخيال وصنع منه صنوفا وألوانا[٢] .

المرحلة الرابعة

٤ — وإلى هنا يؤمن ديكارت بأنه مع هذا فتلك الحقيقية البسيطة ، وكل ما كان يعتقده حقاً ، يمكن أن يتسرب إليه الشك فيقول :

ربما عند جمعى ٢ + ٢ = ٤ يقدرنى على الخطأ الإله الذى أومن بقدرته من صغرى ، بينما أعتقد عدمه أو بالعكس ، لهذا يحسن الافتراض ، وخدع نفسى بأن كل آرائى كاذبة وهمية ، ليصبح اعتقادى القديم كاعتقادى الجديد ، كلاهما وهم وضلال ، فيبطل تحكم القديم فىّ ، وأصبح خلواً من كل شىء .

إذاً لا شىء ، لا سماء ، لا هواء ، لا أرض . لا ... ...

---

(١) « تأملات ص ٣٨ » .

(٢) « تأملات ص ٣٩ — ٤٠ » .

وهنا أصبح غير قادر على الحكم بتاتاً[1].

المرحلة الخامسة

٥ — ولكن هذه النتيجة وهى عدم قدرتى على الحكم بتاتا متعبة وشاقة، وبى كسل يجذبنى دون أن أشعر إلى مجرى حياتى العادية، كما أن الإنسان عند ما ينعم فى النوم بخيال لذيذ، يخاف الاستيقاظ لئلا يحرمه، فيعود إلى النوم ثانية[2].

يقول ديكارت بعد ذلك :

وهنا أعود من تلقاء نفسى ودون أن أشعر إلى آرائى القديمة، خيفة أن اليقظة الشاقة التى تعقب هدوء هذه الراحة بدل أن تجلب لى بعض الضياء والنور لمعرفة الحقيقة، لا تكون كافية لإضاءة ظلمات الصعوبات التى أثيرت الآن.

إذاً لا بد أن أرجع إلى الافتراض التخمينى، ولكن ليوصلنى إلى العلم اليقينى[3].

وهنا تبدأ المرحلة الأخيرة.

يقول ديكارت :

المرحلة السادسة

٦ — بعد هذا أفرض.

أنه لا توجد حقيقة ثابتة فى هذا العالم، إذ أن كل ما أراه من الأشياء يمكن أن يكون كاذباً.

---

(١) « ٢٤ و ٢٥ تأملات »
(٢) « ص ٢٦ تأملات »
(٣) « ٢٦ تأملات »

وما دمت قد قمت أنا بهذا الفرض شخصياً فأنا إذاً موجود وكائن .

وما دمت قد فرضت وجودى وكينونتى فإذاً أنا أفكر .

إذاً أنا كائن مفكر .

إذاً أنا أفكر فى أشياء لا تعرف إلا بالفكر وحده .

لا تعرف لأنها تُرى وتلمس ، ولكن لأنها تفهم وتدرك بالفكر .

إذاً جميع الأشياء والأجسام تدرك بالفكر لا بالحواس .

إذاً يصبح فكرى لا حواسى أساس العلم بالأشياء .

وهنا يصل ديكارت إلى شاطىء الأمان ، فيعتصم بالمعرفة ، ويلوذ بمنبع اليقين[1] .

---

(١) « التأمل الثانى فقرة ٢ و٣ و٥ و١٢ « تأملات »

## حـ ـ شك الغزالى وشك ديكارت وإيمانهما

١٣ — مؤتلفات ومفترقات

١ — من البديهى أن كلا من الغزالى وديكارت قد عرف نظرية الشك قبلا .

٢ — ومن البديهى أيضاً أن الغزالى شك فى التلقينيات ، وفى المحسوسات ، والضروريات ، كما شك ديكارت ؛ ولو أن سيرة كل منهما فى إثبات هذا الشك ومعالجته ، قد تغايرت تمام التغاير كما ظهر لك مما سبق .

٣ — نعم زاد ديكارت بحثه إيضاحا عند ما قال :

قد يكون لله دخل فى إثبات الحقائق وقلبها ، فقد تكون مستنتجاتى صحيحة بينما يقدرنى الله على فهمها كخطأ ، وقد تكون خطأ بينما يقدرنى الله على فهمها كصواب .

٤ — وكما رأيت فى المرحلة الرابعة أصبح ديكارت غير قادر على الحكم على الأشياء ، فوصل الشك فى كل شىء لديه إلى القمة كما حصل عند الغزالى تماماً .

٥ — ورأيت أيضاً كيف تعثر الغزالى فى إثبات الشك ، وكيف سار ديكارت السيرة المفهومة الطبيعية فأعطاك تفكيراً متماسك الحلقات .

٥ — أما كيف خرجا من المأزق الشكى ؟ وكيف نزلا من القمة

أ محدرا

العالية وانحدار من القنة الشاهقة؟ فهذا ما باين فيه ديكارت الغزالى أيما مباينة وباعدت بينهما طرقهما كل المباعدة .

١٤ — ميزان الحكم لدى الغزالى وديكارت

وكذلك لمسنا من كتابات الغزالى . أن ميزان الحكم على الحقائق لديه ؛ هو الدين ، هو الأصول الدينية .

فالرأى حق إذا ما اتفق مع الدين ونظرياته .

وصاحب هذا الحق مسلم مؤمن .

والرأى باطل وغير مقبول إذا ما اختلف مع الدين وأصوله ، وصاحب هذا الرأى ملحد أو زنديق أو كافر .

وهو فى هذا متكلم مؤمن بأسلوب المتكلمين ، كما يفهم من حجاجه للفلاسفة ، والتعليميين فى جميع كتبه التى كتبها عن هؤلاء ليناقشهم فيها .

أما عند ديكارت فميزان الحكم لديه هو المنطق الأرسطاليسى ، هو المقدمات والنتائج ، ولا يهم بعد ذلك أن تواضع الألهيون على النتيجة ، أو تنكر لها رجال الدين ، لأن الحق « حسب رأيه » رائده ، واليقين مطلبه ، وكلاهما هدف يجب أن يستمسك به ، ولا يحاد عنه .

١٥ — الغزالى وديكارت وليد بيئته

ولاحظنا كذلك أيضاً أن طريقة كليهما « ديكارت والغزالى » متأثرة جد التأثر بما وهب كلاهما من بيئة وعمل ، وبما رزقا من تفكير ونظر ، فديكارت رجل الرياضة التى تعرف المقدمات الدقيقة ، والمستنتجات الأدق ؛ رجلُ الفكر المنظم ، والرأى المتصل ، فهو

لا يمكن أن يكون إلا هكذا :

تفكير منظم ، دقيق ، منتج ، وموصل ، وطبيعى .

أما الغزالى فله من بيئته ومن تقلبه فى شتى البحوث وتنقله بين وهاد المعارف والعلوم ، ومن بعده عن الرياضيات التى تساعده على تنظيم فكره وترتيب مقدماته . وتوثيق الصلة بين الدليل والنتيجة .

للغزالى بسبب كل هذا عذر أيما عذر ، وشفيع ليس لمثله شفيع .

١٦ — الأحلام بين الغزالى وديكارت

أما فى تدعيم الشك بالرؤى فى المنام ؛ فقد رد ديكارت على الغزالى رداً صائباً عند ما قال :

إنه يجب الاعتراف ، بأن جميع الصور التى نراها فى أحلامنا ، حتى ولو كانت خيالية ، لها أساس بسيط من الحقيقة كبّره الوهم ، وضخّمه الخيال .

١٧ — طفرة الغزالى ومنطق ديكارت

أما كيف رجعت نفس الغزالى إلى الوثوق بالضروريات ؟ فقد كان ذلك بسبب نور قذفه الله فى قلبه .

نعم إن هذا النور أو ذاك السبب ، بعيد عنا نحن عامة الناس بل خاصتهم ، فالله قد ركب فينا عقولا ، وأودع بين نفوسنا تفكيراً منطقياً ، وأسلوبا للفهم ، وطريقاً للبحث والاستقصاء ، وما طلب منا أن نستعمل سواه .

وذلك بخلاف ديكارت فقد لجأ إلى الحقيقة الانسانية ونزل إلى مستوى الطبيعة البشرية « وما هو إلا بشر » عندما قال : « حين وصل

إلى الشك فى كل شىء، وحين أحس أنه غير قادر على الحكم بتاتا » :

ولكن هذا متعب وشاق ، وبى كسل يجذبنى دون أن أشعر إلى مجرى حياتى العادية ، فكذلك أعود من تلقاء نفسى ، ودون أن أشعر أيضاً إلى آرائى القديمة .

من يسمع هذا ولا يحس بأنه مع ديكارت ؟

من يسمع هذا ولا يحس أحساسه وشعوره ؟

من يسمع هذا ولا يلمس الشك فى نفسه يبزغ ولكن اليقين يكر عليه فيصرعه .

أما الغزالى فيتركنا وحدنا فى الشك حيارى تائهين ، بينما يخرج منه وحده ، لأن الله أرسل له نوراً فأنقذه !

١٨ — الافتراضات بين الغزالى وديكارت

نعم إذا كان الغزالى قد وصل إلى نتيجة بعيدة عن أفهامنا نحن عامة البشر ، فماذا استفاد من فرضياته إذاً ؟

وإذا كان لم يستعملها كأسس منطقية ليصل بها بين عالمى الشك واليقين ، وليقرب بها بين عالمنا وعالمه ، فلماذا أجهد نفسه فى فى افتراضها ؟ ! !

ومع هذا فلنفرض أن الافتراضات التى افترضها لإثبات الشك صحيحة ، بل ووصلته إلى غرضه ، واستفاد منها ، فهل ترى أن بين هذه المقدمات التى أثبتت الشك ، وبين النتيجة التى أرجع بها اليقين إلى نفسه ، وهى النور الإلهى صلة ما ؟

الواقع أنه لا . لا . بتاتا .

إذاً فما كان أحراه ألا يأتى بنظرية الشك ويتعب نفسه فى إيرادها وفى إثباتها ، وما كان أجدره بأن يعلن لنا هذه النتيجة (وهى النور الإلهى الذى أرجع إليه اليقين) كأنها هبة من الله نزلت عليه ، ونعمة من السماء أتت إليه ، سيما أنه كما تقدم كان قد قرأها وعرفها من كلام الصوفية ومن لمحات الواصلين.

هذا ما نلمسه من الغزالى ؛ بينما نرى ديكارت قد استعمل هذه الفرضيات ، وسمح لنفسه بإيرادها عندما اضطر إليها اضطراراً ، وعندما أحسّ بأنها قد توصله إلى اليقين المنشود ، والحقيقة المبتغاة .

وفعلا كان كذلك سيما أن افتراضاته التى ركب فوقها ، ليعلو فيمسك بتلابيب الحقيقة ؛ هى افتراضات معقولة مفهومة .

« يحسن أن تقارن هذا الفرض السابق « الديكارتى » بحالتى الصوفية والموت اللتين فرضهما الغزالى » .

١٩ — وحدة التفكير بين الغزالى وديكارت

وإذا ما تركنا هذه الافتراضات جانباً ، وولينا بحثنا نحو الوحدة الفكرية بين السيرة المنطقية لكل من الغزالى وديكارت فإننا نجد : ان ديكارت سار فى إثبات الشك ، ثم سار فى صرعه بإحلال اليقين محله ، سيرة فكرية منطقية « إلى حدّ ما » أرسطاليسية متماسكة الحلقات .

أما الغزالى فقد سار أولا سيرة سفسطائية مبنية على المغالطة ، كما رأيت فى مناقشته المحسوسات ، والأوليات ، والرؤى ، ليثبت الشك ، مستنجداً بكلام الله جل جلاله حيناً ، وبكلام محمد عليه

السلام حيناً آخر .

وأخيراً عندما أراد إحلال اليقين محله سار سيرة صوفية .

٢٠ — الغزالى متكلم

والواقع أنه كعادته دائماً وهى عادة المتكلمين ، من أنهم يثبتون العقائد الدينية بالآراء العقلية ، والحجج المنطقية ، أى أن النتيجة موجودة قبلا لديهم ، وعليهم فقط إحضار المقدمات ، وجمع الأدلة من هنا والبراهين من هناك .

٢١ — نور الغزالى فكرة صوفية

فالغزالى فى الواقع كان كذلك آمن بفكرة الصوفية وهى : « ان العقل نور يقذفه الله فى القلب » .

فأراد أن يلبس هذه الفكرة لبوس الفلسفة ، فيستلف نظرية الشك السفسطائية ويصورها ، بل ينفخ فيها ليلبسها لبوس الحياة ، ثم يرتقها بالافتراضات طوراً ، وبكلام الرسول حيناً ، وبقول الله أحياناً .

وأخيراً يأتى بنظرية الصوفية ليلصقها بها إلصاقاً ولو تنافرت الألوان وتغايرت الأنواع !!

ولو تباعدت حلقاتها ، وكان عجزها غير مؤتلف مع صدرها !!

٢٢ — ورود هنا وأشواك هناك

لهذا كله أضطر إلى أن ألمس أن ديكارت شك حقيقة ، لأن على شكه أسس المعرفة ، ولأن بشكه التصق الإيمان واليقين ، ولأنه منسجم مع نفسه وتفكيره وما يحيط به .

أما الغزالى فإنه افترض أنه شك ، لأنه علم مما قرأ أن هناك نظرية الشك السفسطائية .

وافترض أنه وصل إلى اليقين لأنه علم مما قرأ أن هناك نظرية اليقين الصوفية.

فأتى عليهما لا ليؤلف بين أجزائهما، وليربط بين حلقاتهما، ولكن ليمعن فى التبعيد بينهما، فيفترض جد الافتراض، ويحاول جهد المحاولة ليثبت الشك، ويفترض ويحاول كذلك حتى يثبت اليقين.

جعلنا نؤمن معه مغالطة وسفسطائياً بالشك، ثم تركنا حيارى، وانتقل بنا طفرة وبغير صلة ما؛ فأخبرنا بأنه وصل إلى اليقين، مردداً كلمة الصوفية علها تعزّينا: «ترصدوا» «فإن لربكم فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها».

٢٣ — أشواك لا ورود فيها أو استنباطات تنفى أن الغزالى قد شك

والآن وبعد أن قدمت بين يديك كل ما تقدم ألا يمكن أن نستنبط ونعلن.

(١) إن الغزالى اضطر لذكر حكاية الشك واليقين ليجعلها كمقدمة لتأريخه حياته التأريخ الفكرى.

وليجعلك أيها القارىء لكتابه المنقذ من الضلال: تؤمن بأنه سار فى دراسة ومجادلة المذاهب الفكرية سيرة فلسفية حرة، ولذلك شك فى كل شىء، وما أنقذه من الوهم والضلال غير ظلال الصوفية ويقين المتصوفين.

وليحملك أيضاً على أن تؤمن بأنه فى هذه الدراسة وفى ذلك البحث، كان رجل الفكر الحر الذى لا يؤمن إلا بالضروريات، فاطّرح وراءه ظهريا كلام المتكلمين، وازدرى تعاليم الباطنين،

وسفه نظريات المتفلسفين ، وأخيراً دخل فى زمرة المتصوفين .

(ب) ولأن الطريقة التى عالج بها إثبات الشك هى طريقة سفسطائية ، والتى عالج بها صرعه ، وإحلال اليقين محله هى طريقة ونهج صوفى ، و « لأسباب أخرى غير هذا » فقد تأكد لنا أنه قام بذلك « تحليل نظرية الشك ونظرية اليقين » بعد دراسته للصوفية ، ومن المؤكد أنه درسها بعد أن اعتزل الناس للتصوف ، وبعد أن ترك بغداد ، وبعد أن قام أيضاً بدراسة علم الكلام ، وبعد أن ناقش الفلاسفة ، مع أنه يريد أن يقنعنا فى كتابه المنقذ ، حين تكلم عن نظرية الشك واليقين ، أنه شك فى مقتبل حياته ، وقبل دراسته لعلم الكلام والنظر فى بقية العلوم كما لمست ذلك سابقا .

(ح) وأيضاً يمكننا أن نستنبط أن الغزالى لم يستفد بذلك الشك وبهذا اليقين ، ولم يفد بهما العلم والبحث كما رأيت :

فنظرية الشك التى أحس بأنه أوجدها أو على الأقل عالجها بأسلوبه الخاص ، هى موجودة قبلا ، وعرفها هو كما عرفها الناس جميعا من السفسطائيين .

ونظرية اليقين التى عالجها ووصل إليها موجودة أيضا قبلا ، وعرفها هو كما عرفها الناس جميعاً من المتصوفين .

وهذا مما يدلك على أن هاتين النظريتين لم تساوراه حقيقة ، ولم تنبعا من قلبه ، وإنما قرأهما ونقلهما وأضفى عليهما أسلوبه اللفظى والحوارى والأخاذ ، لا أكثر ولا أقل ؛ ليقدم بهما كتابه :

« المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » .

يقول : إنه وهو فى مقتبل حياته (وعلى قرب عهد بسن الصبا) ساورته نظرية الشك ، ومرض بسبب ذلك شهرين كاملين ، وهذا يدلنا على أن الغزالى يريد أن يقنعنا بأن الشك كان فى مقتبل حياته ، وأنه مرض بسبب ذلك شهرين .

وهـذه حادثة مادية تاريخية تؤكد إرادته إقناعنا بهذا الشك لا أنه تصنعه فى العلوم ليبحثها من جديد وعلى ضوء جديد .

ولأنه كما قال فى « المنقذ » عند دراسته لهذه العلوم : إنه ألف فيها « كذا وكذا » وهى أشياء مادية معينة ، لها تواريخ محدودة تدحض الفكرة السابقة .

( ه ) يقول أيضا : إنه وهو مقتبل حياته ساورته نظرية الشك ، ومرض شهرين كاملين ، وهو تائه فى بيداء الوهم والضلال ، وأخيراً يرجع إليه اليقين والإيمان .

هذه الحالة حالة المرض النفسى ، واليقين الفكرى ، هى عند المفكرين والفلاسفة بل عند أصغر البحاث شىء خطير وأمر جلل ، ولهذا لابد أن يكون لذلك أثران فى حياة الغزالى إذا كان ذلك صحيحا ومطابقا للواقع وهما :

أولا — أتباعه الأسلوب العلمى ؛ أسلوب البحث والتنقيب ، وعدم التسليم بالأقاويل الضعيفة ، والآراء الفطيرة ، والأحاديث غير الموثوق بها ، مما يتناسب مع تحليله لنظرية الشك ، واعتصامه

باليقين، الذى وصل إليه والذى جعله لا يؤمن إلا بالضروريات فقط .

ولكن مع كل هذا فنحن نرى فى الإحياء وفى غيره مما كتبه بعد تلك الحادثه الخطيرة، أنه مملوء بالآراء غير الممحصة، والأحاديث غير المعنعنة، والحكايات غير المعقولة، وما كان يوردها ولا يقبل أن يكتبها بعد أن قام بذلك التحليل بأى حال من الأحوال .

ثانيا — وكان لا بد أيضاً من أن يكتب عن تلك الحالة : حالة الشك التى ساورته « حينئذ » ، وكيف تغلب عليها بإحلال اليقين ، وذلك لتكون تسجيلا لما حدث ولتصبح طريقاً لاحباً للمتشككين يسيرون على معالمه ، وسبيلا إلى صغار المتفلسفين والبحاث يهتدون بضوئه وأقباسه .

ولكنه لم يفعل هذا مع أنه كتب فى الإحياء، وفى غير الإحياء عن أحوال اعتورته، وعن نظريات ناقشها ، وعن أشياء كثيرة هى دون نظرية الشك واليقين فى الأهمية والخطورة بكثير وكثير !!

أفلا يدلنا كل هذا على أن نظرية الشك واليقين، لم تعتوره إلا بعد أن كتب هذه الكتب جمعاء، وحين كتابة المنقذ فقط، وبعبارة أدق إنه ما فكر فيها إلا حين أراد كتابة تاريخ حياته : أى لا على أنها رواية لما حصل له حقيقة ، بل على أن هذا ما كان يجب أن يكون .

(و) وأخيراً يقول لنا الغزالى نفسه :

« إن المقصود من عرض كل هذه الحكايات « المناقشات السابقة » هو أن يعمل كمال الجد فى الطلب حتى ينتهى بنا « هذا

الجد » إلى طلب ما لا يطلب »[1].

هل تصدق أن هذا الكلام ، هو كلام الغزالى نفسه تذييلا لبحثه فى نظرية الشك والمعرفة ؟!

هل تريد بعد ذلك إعلاناً وتصريحاً أكثر من أنه كتب ما كتب إرشاداً لطريق الحق ، وحضا على أن يعمل كمال الجد فى طلب المعرفة ، والوصولَ إلى اليقين ؟!

---

(١) «منقذ ص ١٥» .

# الباب الثالث

---

## كيف بحث الغزالى عن الحق ؟ وكيف نقد علم الكلام وزيفه ؟

١ — حصر الغزالى الحق فى أربع فرق .

٢ — كيف وثق من وجود الحق عند إحداها ؟

٣ — كيف درس علم الكلام وكيف زيفه ؟

٤ — نظرة الغزالى إلى كتاب محمد وحديث محمد وآل محمد ؟

٥ — نور القرآن ونور الصوفية .

## بحثه عن الحق وزيفه علم الكلام ونقده المتكلمين

١ — حصر الغزالى الحق فى أربع فرق

بعد أن شفا الله الغزالى من مرض الشك، فقذف فى قلبه باليقين، أخذ فى البحث عن الحقيقة، فوجد أنها لا تعدو أن تكون لدى: «المتكلمين، أو الباطنية «أصحاب التعليم» أو الفلاسفة، أو الصوفية.

فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى فى دركه مطمع، فابتدر لدراستهم مبتدئا بعلم الكلام، ثم بنظريات الفلسفة، ثم بتعليمات الباطنية، وأخيراً بالتعمق فى دراسة الصوفية.[1]

٢ — كيف وثق من وجود الحق عند إحداها؟

ولكن الغزالى يقذفنا بالنتيجة قبل أن يكوّن مقدماتها كعادته دائماً كما رأيت وكما سترى لأنه:

يريد أن يبحث عن الحق:

(ا) فلماذا قصر البحث عنه فى هؤلاء الأربعة؟

ذلك لأنه لا يعرف سواهم.

(ب) ولماذا آمن بأن الحق لا يعدوهم؟[2]

ذلك لأنه عرف قبلا، أن الحق الذى اعتنقه هو عند الصوفية لا غير، أو لأنه يريد عمل مقدمات صورية ليستنتج هذا!!

---

(١) «منقذ ص ١٦ — ١٧».

(٢) «منقذ ص ١٦».

(ح) ولماذا لم يتطرق إلى ذهنه أنه قد يجد الحق مجانبا الكل، مهتديا إليه بنفسه، وبأسلوب خاص به، ومغاير لأسلوب الجميع؟

ذلك لأنه آمن أيضاً بأنه: إذا شذ الحق عنهم، فلا يبقى فى دركه مطمع.[1]

أى أنه حكم على نفسه بالعجز عن ابتكار طريق للحق، غير الطريق الذى احتفره سواه!!

فهو إذاً؛ قد حدد لنفسه الطريق الذى يجب أن يسير فيه، والذى مهّده غيره!!

إذاً هو مقلد معتصم بالتلقينيات!!

وهو حين يقلد يعلم ويجزم بأنه مقلد!!

بل ولا يريد إلا أن يقلد!!

أمر واضح وفى غير احتياج إلى تعليق!!

٣ — دراسته علم الكلام وتربيبه

ولهذا فهو يقول:

بدأت بدراسة علم الكلام فعقلته وصنفت فيه، فصادفته علماً وافياً بمقصوده، من حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها من تشويش أهل البدعة.

ولكن اعتمدت طائفة المتكلمين فى ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم واضطرهم إلى التسليم بها إما:

التقليد، أو إجماع الأمة، أو لمجرد أنها من الأخبار، أو القرآن.

---

(١) «منقذ ص ١٦».



٤

« ولكن هذا قليل النفع فى جنب من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً أصلاً » ثم يقول بعد ذلك :

« ولهذا لم يكن الكلام فى حقى كافياً ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافياً »[1].

نعم ؛ قد حصل لغيرى بسبب علم الكلام ، ما أنقذه من ظلمات الحيرة ، ولكن كان حصولا مشوبا بالتقليد فى بعض الأمور ، التى ليست من الأوليات[2].

٤ — نظرة الغزالى الى كتاب محمد وحديث محمد وأمة محمد !

ومعنى ذلك أن الغزالى يعلن أنه درس علم الكلام ، واقتنع بأنه لم يجد الحقيقة التى ينشدها فى طياته ، ولم يرتشف زلال الإيمان من بين أنهاره .

لماذا؟

ا — لأن رجاله مقلدون !!!

ب — ولأنهم يسيرون وراء إجماع الأمة الإسلامية .

حـ — ولأنهم يقبلون آى القرآن لمجرد أنها من كلام الله .

ء — ولأنهم يعتصمون بأخبار محمد ، لمجرد أنها من حديث رسول الله .

ما هذا ؟؟

ثار الغزالى على التقليد ، ولم يعتبره مصدراً من مصادر اليقين ! !

ثار الغزالى على إجماع الأمة لأنه لم يشف غلته ، ولم يأخذ

---

(١) « منقذ ص ١٩ » (٢) « منقذ ص ١٨ و ١٩ »

بيده إلى شاطئ الحقيقة والإيمان !!

ولن نناقشه فى هذين !!

ولـكن :

كيف يثور على كتاب الله ، وكلام محمد ، فلم يكن الـكلام الذى من أسسه القرآن والحديث فى حقه كافياً ، ولا لدائه شافياً ؟!

فهل نسى الغزالى ما قاله سابقاً : من أن النور الذى وقر فى صدره ، والذى أرجع اليقين إلى نفسه ، والذى أعاد إلى الضروريات العقلية اطمئنانه بها ، إنما هو نور قذفه الله فى قلبه ؟؟ !!

وهل الله الذى قذف ذلك النور ؟ والذى أرجع إليه الاطمئنان ؟ ليس هو نفس الله الذى انتزعت مقدمات علم الـكلام من قرآنه ، والذى أعطى الناس جميعاً كتابه ، فأشعل فوق رءوسهم نوره ، ليهديهم إلى الصراط السوىّ ، وليدلّهم على طريق الحق ، ومنبع اليقين ؟؟ !!

أو الله الذى قذف ذلك النور فى قلبه ، غير إله القرآن ، وغير إله المسلمين ؟ !! سنرى :

— نور القرآن ونور الصوفية

وهنا أنقل ما كتبه فى المنقذ عن ذلك النور الصوفى إذ قال : « هو ذلك النور الذى أراده إله المسلمين ، عندما قال : فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام .

ذلك النور ؛ هو الذى أراده نبى المسلمين عليه السلام ، عندما سئل عن معنى الشرح فقال :

هو نور يقذفه الله فى القلب »[1] .

إذاً : ذلك النور الذى آمن به الغزالى ، والذى أرجع إليه اليقين ، هو نور إله المسلمين ، وإله محمد ، وإله القرآن .

وهو نفس النور الذى شعّ من كتاب الله ، ومن كلام محمد ، والذى اعتصم به المتكلمون .

أجل ؛ فلماذا آمن الغزالى بذاك ، ورفض ذلك ؟!

لأن النور هناك ؛ نور ذكره الصوفية وهو يشايعهم ، والنور هنا ؛ نور اعتصم به الكلاميون ، وهو يتظاهر بأنه يعاندهم .

فهو قد قبل الحق هناك ؛ لأنه أتى ممن يعتقد أنهم أشياعه ، ورفض نفس الحق هنا ؛ لأنه نبع ممن يفترض أنهم أعداؤه .

٦ — وأخيراً

نعم ؛ وأخيراً و بعد الذى قدمناه ، ألا يمكننا أن نقول :

إن كل ما صرح به الغزالى هنا من اعترافات ، لدى بحثه عن الفرقة الصائبة ، وعن اليقين الذى ينشده فى علم الكلام ، وعن ... إنما هى اعترافات كاعترافاته التى قدمها بين يدى نظرية الشك سواء بسواء .

أى أنه لم يفكر فى هذا البحث ، ولم يطلب ذلك اليقين ، إلا حين تدوينه تاريخ حياته فى المنقذ .

ولهذا لم يواته الفكر السليم ، والمنطق المستقيم « فى هذا الموضع » ولو واتته الألفاظ أرسالا ، وانهالت عليه الجمل انهيالا ، مُسْتَلَبةً من هنا ومن هناك ، فى تناقض عجيب ، وتباين أعجب وأغرب !!

نعم ؛ ولو ...

(١) « منقذ ص ١٤ » .

# الباب الرابع

## دراسة الغزالى الفلسفة وتسفيهه المتفلسفين

---

### ا — تاريخ هذه الدراسة كما اعترف به الغزالى :

١ — لماذا درس الغزالى الفلسفة ؟

٢ — كيف درس الفلسفة ومتى وأين وعلى من وماذا رأى وبماذا حكم عليها ؟

### ب — تحليل هذه الاعترافات :

٣ — هل درس الغزالى الفلسفة ليعثر على الحقيقة ؟

٤ — أو درسها ليهدمها ؟

٥ — المجهودات الفلسفية التى قام بها :

أولا — مجهود دراسى محض

ثانيا — مجهود نقدى سلبى

ثالثا — مجهود نقدى إيجابى

٦ — لماذا أراد نقض الفلسفة وهدمها ؟

٧ — الحق الصراح كما نعتقد

# دراسة الغزالى الفلسفة وتسفيهه المتفلسفين

---

## ا – تاريخ هذه الدراسة كما اعترف به الغزالى

بعد أن آمن الغزالى بأن الحق الذى ينشده ، واليقين الذى يرتجيه ، لا يوجد بين آى علم الكلام ، انساب بين هضاب الفلسفة الخشنة ، ومعارجها الصخرية الوعرة .

١ – لماذا درس الغزالى الفلسفة ؟

فأخذ يحدثنا حين بدأ دراسته لهذا العلم « علم الفلسفة » مبيناً سبب هذه الدراسة قائلا : [١]

« إنه علم يقيناً : أن ما ذكر فى كتب المتكلمين ، من الرد على الفلاسفة ، إنما هى كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد » [٢] .

« وعلم يقيناً – أيضاً – أنه لن يقف باحث على فساد هذا العلم – علم الفلسفة – « وكذا أى علم آخر » إلا إذا حصّله ، وعرف مغاوره تفصيلا وتدقيقاً ، حتى يساوى فيه أعلم الناس بأصله ، بل يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب هذا العلم ، وإذ ذاك ؛ يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً وصحيحاً » [٣] .

---

(١) « منقذ ص ٢١ »   (٢) « منقذ ص ٢١ »   (٣) « منقذ ص ٢١ »

وعلم يقيناً كذلك : أن ردّ هذا المذهب — مذهب الفلسفة — قبل فهمه ، والاطلاع على كنهه ، رمىٌ فى عَماية.[1]

وعلم أخيراً : أنه لم يوجد أحد من علماء الإسلام صرف همته وعنايته إلى ذلك[2].

٢ — كيف درس الفلسفة ومتى وأين وكم وماذا رأى وبماذا حكم عليها؟

بعد أن آمن الغزالى بكل ما تقدم يحدثنا قائلا :

« فشمرت عن ساعد الجد ، فى تحصيل ذلك العلم ، من الكتب بمجرد المطالعة . ومن غير استعانة بأستاذ .

وكان ذلك فى أوقات فراغى من التصنيف ، والتدريس ، فى العلوم الشرعية . وكنت ممنُوًّا بالتدريس ، والإفادة لثلاثمائة نفر من الطلبة .

وكان ذلك ببغداد .

فأطلعنى الله بمجرد المطالعة فى هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم فى أقل من سنتين ..

ولكنى ظللت مواظباً على التفكير فى ذلك العلم بعد فهمه ، قريباً من سنة أخرى ، أعاوده وأردده ، وأتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل ، اطلاعا لم أشك فيه .

وأخيراً : آمنت بأنهم مع كثرة ، أصنافهم يلزمهم سمة الكفر والإلحاد ، حيث أن الكل مجانب للحق الذى ينشده ، بعيد عن

(١) « منقذ ص ٢١ » . (٢) « منقذ ص ٢١ » .

الإيمان الذى يبحث عنه ، وإن تفاوت الأوائل والأواخر ، فى القرب منه والبعد عنه » .[1]

إلى هنا انتهت حـكاية الغزالى عن الفلسفة .

لم درسها ؟ وكيف ؟

ومتى وأين ؟

وكم ؟ وعلى من ؟

وماذا رأى ؟

وبماذا حكم عليها وعلى الفلاسفة أجمعين ؟

هذه قصة فلسفته ، وتلك اعترافاته عنها !

فما نصيبها من الحق ، وما قسطها من الواقع ؟

هذا ما سنتحدث عنه الآن فنبين :

هل درس الغزالى الفلسفة ليعثر على الحقيقـة ؟ أو درسها ليهدمها ؟

---

(٣) « منقذ ص ٢١ و ٢٢ » .

## ب — تحليل هذه الاعترافات

٣ — هل درس الغزالى الفلسفة ليعثر على الحقيقة ؟

فأما ما يؤيد النظرية الأولى وهى — إن الغزالى درس الفلسفة ليعثر على الحقيقة — فيمكننا أن نلخصه فيما يأتى :

إن الغزالى أعلن مرارا وتكرارا : بأنه فى هذه الجولة الدراسية ، بين علم الكلام وبين الفلسفة وغيرها من العلوم ، إنما هو باحث عن الحقيقة[1] .

وأن التعطش لدرك الحقائق هو غريزة وفطرة وضعتا من الله فى جبلته[2] .

وأنه باحث عن المحق والمبطل[3]

ولما لم يجد ذلك فى بيداء علم الكلام أتى إلى هضاب الفلسفة ليبحث عنها « الحقيقة[4] » .

ولهذا فقد أخذ "De Boer" أقواله هذه بدون مناقشة فقال :

« إن الغزالى درس الفلسفة ، ليجد طريقا للخروج من الشكوك التى اعتورته ، وأنه أراد طمأنينة القلب ، وتذوق الحقيقة العليا[5] .

هذا ما قاله الغزالى ، وهذا ما وافقه عليه "De Boer" وهى

---

(١) ( منقذ ص ١٦ ) .
(٢) ( منقذ ص ٧ ) .
(٣) ( منقذ ص ٥ ) .
(٤) ( منقذ ص ٢٠ و ٢١ ) .
(٥) T. J. de Boer in Geschichte der Philosophie in Islam 1901 pa. 138-150

كلمات عامة ، وجمل غير محدودة .

وأما النظرية الثانية وهى : إن الغزالى درس الفلسفة ليهدمها .

٤ — أو درس الفلسفة ليهدمها ؟

فإننا بعد أن نقرأ له ما تقدم ؛ نلاحظ :

ا — أنه فى مقدمة مقاصد الفلاسفة « وهو الكتاب الذى ألفه قبل التهافت ، والذى ألفهما قبل أن يترك بغداد للعزلة والخلوة » . يقول :

« إنى التمست كلاما شافيا فى الكشف عن تهافت الفلاسفة وتناقض آرائهم ، فرأيت قبل بيان تهافتهم ، أن أقدم كلاما وجيزا ، مشتملا على حكاية مقاصدهم ، من غير تمييز بين الحق والباطل ، وأورده على سبيل الحكاية مقرونا بما اعتقده من أدلة لهم » .

وفعلا كان الغزالى أمينا فى هذا العرض ، ماهرا فى ذلك الاخراج .

ب — ونلاحظ أيضا : أنه يؤكد فى التهافت ، أنه درسها ليسفهها وينقضها ، وأنه ألفه لهدم أفكار الفلاسفة ، والتشويش عليهم ، وإبطال آرائهم ، وأنه قال فى نهاية المسألة الأولى :

« ونحن لم نلتزم فى هذا الكتاب إلا تكذيب مذهبهم ، والتغيير فى وجوه أدلتهم ، بما نبين تهافتهم ، ولم نتطرق للذبّ عن مذهب معين ، فلذلك لا نخرج عن مقصود الكتاب ، إذ غرضنا إبطال دعواهم ، أما إثبات المذهب الحق ، فسنصنف فيه كتاباً بعد الفراغ من هذا إن ساعد التوفيق إن شاء الله ، وسنسميه : « قواعد

العقائد » و نعتنى فيه بالإثبات كما اعتنينا فى هذا الـكتاب بالهدم »[1] .

ح – وأنه قال أيضاً فى مقدمة التهافت بالقسم الثالث :

« ولذلك أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم « الفلاسفة » إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدّع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا به[2] » .

وقال أيضاً فى نهاية مسألة – بيان تلبيسهم ان الله صانع العالم وان العالم صنعة .

« فإن قال قائل : فإذا أبطلتم مذهبنا ، فماذا تقولون أنتم ؟ قلنا : نحن لم نخُض فى هـذا الـكتاب خوض ممهِّد ، وإنما غرضنا أن نشوّش دعاويهم وقد حصل »[3] .

ولـكن قد يفهم من هذا :

أنه قرأ للفلاسفة كباحث عن الحق ، فلما وجد الحق نائيا عنهم ، أرادِ الرد عليهم فى التهافت ، ولـكنه اضطر قبـل ذلك ، أن يبين لهم أنه فهم كلامهم ووعاه ، وعرف لفظهم ومعناه ، حتى يأتى بعد ذلك نقده نقد الواثق العارف ، لا نقد الجاهل المتسفسط ، كما فعل كثير من المتكلمين .

نعم قد يفهم ذلك ولـكن يمنعه :

ماصرح به فى المنقذ : من أنه رأى كثيرا من المتكلمين ، الذين نقدوا الفلسفة إنما نقدوها بكلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد .

---

(١) تهافت ص ٢٠ – المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣١٩ هـ .
(٢) « تهافت ص ٥ » . (٣) « تهافت ص ٣٢ » .

٥ — مجهودات الغزالى الفلسفية

ولأنه عندما بدأ التدريس فى سنة ٤٨٤ هـ بنظامية بغداد للعلوم الشرعية والأصولية والكلامية ، أحس بأنه مطالب لأنه من المتكلمين المدرسين ، ولأنه تلميذ ذلك البطل المفقود ، بطل علم الكلام ، ورجله الفذ — أمام الحرمين — أحس بأنه مطالب بسد هذا النقص ، وبإحالة هذا التبديد والتناقض فى حجج المتكلمين ، الذين ردوا على الفلسفة ونقدوها ، إلى حجج سليمة ، وبراهين واضحة مستقيمة ، فقام بمجهودات ثلاثة :

أولا — مجهود دراسى محض : حين بدء دراسة هذا العلم دراسة استيعاب وتحصيل ، وتحقيق وتفصيل ، وكانت نتيجة هذا الدرس كتابة « مقاصد الفلاسفة » فى أواخر سنة ٤٨٦ هـ .

ثانيا — مجهود نقدى سلبى :

وهو ما قام به فى كتابه : « تهافت الفلاسفة » التهافت الذى وعد به فى المقاصد ، حيث أن المقصود من تأليفه كما قال : هو التشويش على الفلاسفة وتسفيههم ، والرد عليهم وأبطال آرائهم لا غير[1] ، وكان ذلك فى ١١ محرم سنة ٤٨٨ وكانت سنه حينئذ ٣٨ سنة ، أى قبل أن يخرج من بغداد للعزلة والخلوة ، بنحو أحد عشر شهرا — لأنه خرج فى ذى القعدة سنة ٤٨٨ — وقبل أن تنتابه الأزمة النفسية ، التى خرج على أثرها من بغداد ، بنحو خمسة أشهر ، حيث أن أولها كان رجب سنة ٤٨٨ هـ وهذا يخالف ما قاله "De Boer"

(١) « تهافت ص ٥ و ٢٠ و ٣٢ » .

من أنه ألف التهافت بعد خروجه من بغداد بقليل[1] .

ثالثا : مجهود نقدى إيجابى :

وهـذا ما وعد به فى كتابه — تهافت الفلاسفة — أكثر من مرة ، بأنه سيؤلف فيما بعد كتابا ، يذكر فيه رأيه فى كل المسائل التى هدمها فى تهافته ونقضها ، وسيسميه قواعد العقائد ، وقد قام بهذا الـكتاب فعلا ، وسماه قواعد العقائد أيضاً ، وقد كان الحلقة الختامية لمجهوده الفلسفى[2] إذ ألفه فى القدس بعد خروجه من بغداد مباشرة ، وأدمجه بالجزء الأول من كتاب إحياء علوم الدين .

إذاً :

بعد هذا التفصيل لتاريخ الغزالى الفلسفى الذى أخذ من تاريخ حياته الحقيق ، والذى ترى ترابط حلقاته ، وتماسك أجزائه ، وتسلسل مقدماته . ألا يمكننا أن نجزم بأنه درس الفلسفة لينقضها ، ويشوش عليها ، كما قال هو نفسه ، واعترف بذلك فى كتابه المنقذ كما رأيت ، وكذلك فى التهافت أيضاً ؟؟

٦ — لماذا أراد نقض الفلسفة والتشويش عليها ؟

أما أنه لماذا نقضها ؟ وسفه أصحابها ؟

فلأجل أن يكون هو المتكلم ، الذى عرف كيف يغالبها ويصرعها ، فيسكت الفلاسفة ، ويخبت أنفاسهم ، ويخمد شهرتهم ، حتى يكون جديراً بأن يصبح صارع الفلسفة ، وهادم المتفلسفين .

---

(١) تاريخ الفلسفة الاسلامية من ص ١٣٨ — ١٥٠ إلى De Boer .

(٢) أنظر نهاية بحثه فى المسألة الأولى فى التهافت وهى : (أبطال مذهب الفلاسفة فى أزلية العالم .

ولهذا نجده فى إحيائه يقول : إنه ألف هذا الكتاب « قواعد العقائد » الذى ذكره فى تهافته والذى هو الحلقة الختامية لمجهوده الفلسفى .

يقول : « إنه ألفه لبيان العقيدة التى نقلها أهل السنة (الأشاعرة) عن السلف » .

مع ملاحظة أنه ليس فيه أى مجهود فلسفى بتاتاً لدرجة أن الغزالى يُصرح بأنه :

« لا يمكن أن ينتفع بكتابه هذا إلا العوام قبل اشتداد تعصبهم أما الذى يعرف شيئاً من علم الكلام فقلما ينفعه هذا »[1] .

٧ — الحق الصراح

وبعد هذا ألا يمكننا أن نجزم بأن اعترافات الغزالى الفلسفية فى المنقذ ، الذى أرخ به حياته الفكرية ؛ تقوم على شقين :

الشق الأول : انه درسها بعد دراسة علم الكلام ، بحثا عن الحق الصراح ، وجريا وراء الإيمان ، وهذا ما أبنّا أنه لا يتفق بتاتا مع

الشق الثانى : من أنه درسها لينقدها ويهدمها ، ويسفه أصحابها ، ويسد النقص الذى لم يقدر على إكماله المتكلمون ، فيضحى هازم الفلاسفة ، وحجة الإسلام ، وهذا ما يتفق مع الحق الصريح ، والواقع الذى لا ريب فيه .

فاعترافه من هذه الناحية صحيح إذاً ؛ ولو لم يرض به بعض كبار المستشرقين[2] .

---

(١) أحياء ص ٣٦ « مقدمة قواعد العقائد » . (٢) يرجع فى هذا الفصل إلى : الغزالى كفيلسوف « بالفرنسية طبع القاهرة سنة ١٩٣٩ » للباحث نفسه

# الباب الخامس

## مجادلة الغزالى مذهب التعليمية

---

١ — لماذا درس الغزالى مذهب التعليمية ؟
٢ — من أين درسها وعرفها ؟
٣ — كيف درسها ؟
٤ — النتيجة التى وصل إليها
٥ — السبب الحقيقى فى دراسته ومجادلته التعليمية
٦ — ماذا فى مقدمة فضائح الباطنية ؟
٧ — تشوف الغزالى لتسخير علمه الدينى لخدمة المستظهر بالله
٨ — الأجر الدنيوى الذى يطمع فيه الغزالى
٩ — تحير الغزالى فى اختيار العلم الذى يريده الخليفة
١٠ — أمر الخليفة للغزالى بتسخير علمه الدينى فى الرد على الباطنية
١١ — المستظهر بالله يحدد النتائج وعلى الغزالى إحاكة المقدمات
١٢ — خروج الغزالى من حيرته ، بعثوره على ضالته
١٣ — طاعة أولى الأمر أولا
١٤ — والذب عن الدين ثانيا
١٥ — والجرى وراء الشهرة والشرف ثالثا
١٦ — السر واللباب من هذا النضال
١٧ — المعانى واضحة والمقصود أوضح
١٨ — هل يمكن أن تختفى الحقيقة فى اعترافات الغزالى ؟
١٩ — الغزالى يكتب عن التعليمية لأن السلطان أمره بالرد عليهم
٢٠ — أشواك لا ورود فيها
٢١ — هل اختفاء الحقيقة فى اعترافات الغزالى كان قصدا ؟
وهل هذا الاختفاء يقدح فى الأمانة العلمية للغزالى ؟

# مجادلة الغزالى مذهب التعليمية

بعد أن انتهى الغزالى كما رأيت سابقاً، إلى أن الفلاسفة جميعاً موسومون بالكفر أو الإلحاد[1] وأن الحق الذى يطمع فيه، واليقين الذى يبغيه، بعيد عنهم بعد السماء عن الأرض.

وبعد أن انتهى من تحصيل علم الفلاسفة وتزييفه.

« وإلى أن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بكل شىء، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات[2] ».

١ — لماذا درس الغزالى مذهب التعليمية ؟

بعد أن انتهى من كل ذلك، نراه يدلى بأسباب دراسته لمذهب التعليمية قائلا :

١ — « وكانت حينئذ قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحديهم بمعرفة الأمور، من جهة الإمام المعصوم، القائم بالحق — أى لا من جهة القرآن والسنة والعقل — فعنّ لى أن أبحث عن مقالاتهم، لأطلع على ما فى كتبهم »[3].

وقد اتفق أن ورد على أمر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهبهم، فلم تسعنى مدافعته، وصار ذلك مستحثاً من خارج، ضميمة للباعث الأصلى من الباطن »[4].

---

(١) « منقذ ص ٣٣ و ٣٤ ».    (٢) « منقذ ص ٤٤و٤٥ ».
(٣) « منقذ ص ٤٥ ».    (٤) « منقذ ص ٤٦ ».

٢ — من أين درسها وعرفها ؟

يقول أيضاً :

« فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم[١] .

وكان قد بلغنى بعض كلماتهم المستحدثة ، التى ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم[٢] .

وكنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابى المختلفين إلىّ ، بعد أن كان قد التحق بهم ، وانتحل مذهبهم »[٣]

٣ — كيف درسها ؟

« ولهذا : جمعت تلك الكلمات ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق .

واستوفيت الجواب عنها استيفاء أنكره على بعض أهل الحق ، لأنى أبالغ فى تقرير حجتهم .

ولكنى اضطررت إلى ذلك ، لأن هذا الصاحب السابق المختلف إلىّ ، حكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين فى الرد عليهم ، مع أنهم لم يفهموا بعد حجتهم .

فلم أرض لنفسى : أن تظن بى غفلة عن أصل حجتهم ، فلذلك أوردتها ، ولا أن يظن بى أنى لم أفهمها ، ولذلك قررتها[٤] » .

٤ — المقدمة والنتيجة

وأخيراً يأخذ الغزالى هنا — فى المنقذ — فى مناقشتهم قاصراً ذلك على فكرة الإمام المعصوم مبيناً ؛ أنه رد عليهم فى كتب منها :

---

(١) « منقذ ص ٤٥ » .

(٢) « منقذ ص ٤٥ » .

(٣) « منقذ ص ٤٦ » .

(٤) « منقذ ص ٤٥ ، ٤٦ » .

المستظهرى (فضائح الباطنية)، وحجة الحق، ومفصّل الخلاف، والدرج المرقوم بالجداول، والقسطاس[1].

وينتهى الغزالى إلى هذه النتيجة، التى يرددها دائماً فى نهاية كل بحث له، وهى : ان هؤلاء، ليس معهم شىء من الشفاء، المنجّى من ظلمات الآراء[2].

فالحق الذى يبحث عنه، ليس فى إمامهم.

واليقين الذى يرجوه، لا يوجد فى معصومهم.

٥ — السبب الحقيق فى دراسته ومجادلته التعليمية

وكما رأيت يُدلى الغزالى فى المنقذ بسببين لوضعه دراسة التعليمية، ضمن الجولة الدراسية، التى قام بها ليبحث عن الحقيقة، فأصبحت هى المرحلة الثالثة فى هذه الجولة، وهما :—

١ — إنه عنّ له أن يبحث عن مقالاتهم، ليطّلع على ما فى كتبهم، فهو لديه باعث « باطنى نفسى ».

٢ — وإنه « اتفق أن ورد عليه أمر جازم من الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهبهم، لم يسعه مدافعته، فأضحى عنده « باعث خارجى ».

فهل نصدق السببين معا ؟ ؟ أو أحدهما ؟ ؟

وإذا كان فما هو ؟

٦ — مقدمة فضائح الباطنية

هذا ما سآخذ بيدك لتلمسه الآن، عندما تقرأ أول كتاب ألفه

(١) « منقذ ص ٥٤ ».
(٢) « منقذ ص ٥٥ ».

فى الرد عليهم ، وهو فضائح الباطنية — المستظهرى — الذى سماه باسم الخليفة المستظهر بالله ، وكان دعاية له وللخلافة السنية ، دعايةً حارةً قويةً ، لم نعهدها اليوم فى تأييد المذاهب السياسية ، وتفنيد الآراء المعارِضة !

وسأنقل إليك مقدمته بنصها وفصها ، لتشتم منها بل لتلمس السبب الحقيقى ، الذى دفعه للجلاد وللنضال ضد التعليمية ، بل الوحيد الذى لم يذكر سواه ، لأنه هو الحق والواقع الذى لا ريب فيه .

يقول : « مجيبا على هذه العناوين »

« أما بعد » [1]

٧ — تشوّف الغزالى لخدمة المستظهر بالله بتصنيف كتاب فى علم الدين

« فإنى لم أزل مدة المقام ، بمدينة السلام ، متشوّفاً إلى أن أخدم المواقف المقدسة النبوية ، الأمامية المستظهرية ، ضاعف الله جلالها ، ومد على طبقات الخلق ظلالها ، بتصنيف فى علم الدين »

٨ — الأجر الدنيوى الذى يطمع فيه الغزالى

« أقضى به شكر النعمة ، وأقيم به رسم الخدمة ، فأجتنى بما أتعاطاه من الكلفة ، ثمار القربة والزلفى » .

٩ — تحير الغزالى فى اختيار العلم الذى يريده الخليفة

« ولكنى احتجت إلى التوانى ، لتخصيص الفن الذى يقع

---

(١) ص ٢١ من فضائح الباطنية السابق الذكر طبعة ليدن سنة ١٩١٦ .

موقع الرضا ، من الرأى النبوى الشريف ، فكانت هذه الحيرة تغيّر فىّ وجه المراد ، وتمنع القريحة من الأذعان والانقياد » .

### ١٠ – أمر الخليفة للغزالى بتصنيف كتاب فى الرد على الباطنية

« حتى خرجت الأوامر الشريفة ، المقدسة النبوية المستظهرية ، بالإشارة إلى الخادم بتصنيف كتاب فى الرد على الباطنية » .

### ١١ – المستظهر بالله يحدد النتائج وعلى الغزالى أحكام المقدمات ! !

« على أن يشتمل الرد :

الكشفَ عن بدعتهم وضلالتهم ، وقوة مكرهم واحتيالهم ، ووجه استدراجهم عوام الخلق وجهالهم ، وإيضاح غوائلهم فى تلبيسهم وخداعهم ، وانسلالهم من ربقة الإسلام وانسلاخهم وانخلاعهم ، وإبراز فضائحهم وقبائحهم » .

### ١٢ – خروج الغزالى من حيرته بعثوره على ضالته

« فكانت المفاتحة بالاستخدام فى هذا العلم ، فى الظاهر نعمة أجابت قبل الدعاء ، ولبت قبل النداء « أجابتنى ولبتنى »

وإن كانت فى الحقيقة ضالة كنت أنشدها ، ونعمة كنت أقصدها . فرأيت الامتثال حتما ، والمسارعة إلى الارتسام حزما

### ١٣ – طاعة أولى الأمر أولا

« وكيف لا أسارع إليه ؟ : وأن لاحظت جانب الآمر ، ألفيته

أمرا مبلغه زعيم الأمة شرف الدين ، ومنشئه ملاذ الأمم أمير المؤمنين ، وموجب طاعته خالق الخلق رب العالمين ، إذ قال تعالى :

« وأطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم »

### ١٤ — والذب عن الدين ثانياً

« وإن التفتّ إلى المأمور به ، فهو ذبّ عن الحق المبين ، ونضال دون حجة الدين ، وقطع لدابر الملحدين » .

### ١٥ — والجرى وراء الشهرة والشرف ثالثاً

« وإن رجعت إلى نفسى ، فقد شرفت بالخطاب به من بين سائر العالمين » .

### ١٦ — السر واللباب من هذا النضال

لا زال الغزالى يتحدث قائلا .

« وأخيرا نختم هذا الكتاب ، بما هو السر واللباب ، وهو إقامة البراهين الشرعية ، على صحة الإمامة للمواقف القدسية ، النبوية المستظهرية ، بموجب الأدلة العقلية والفقهية » .

### ١٧ — المعانى واضحة والمقصود أوضح

بعد ذلك أدعك تلمس وتحكم :

هل بَحَثَ الغزالى فى التعليمية ، كما أراد أن يوهمنا فى اعترافاته ؟ ليعثر على الحقيقة ، ضالته المنشودة ، فيعتصم باليقين .

فهو فى هذا باحث عن الحق ، مصارع للباطل .

أو لأنه دعى إلى الكتابة فكتب ، وإلى الجلاد فجالد ، وإلى الدفاع عن نتائج ، فحاك المقدمات .

١٨ — هل يمكن أن تختفى الحقيقة فى اعترافات الغزالى ؟

إذاً هل يمكن أن تختفى الحقيقة فى اعترافات الغزالى ؟

نلاحظ كما سبق أن الغزالى قال فى المنقذ :

ا — إن الإمام أمره : « بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهب التعليمية »

أى مناقشة آرائهم ، و بيان مذهبهم ، وهل هو خطأ أو صواب ؟ كما تنطق بذلك هذه الجملة .

ومن الطبيعى أن يكون مقصود الخليفة ؛ هو الرد عليهم ، وتسفيه آرائهم « وإن لم تساعدنا ألفاظه » لأن من البدهى ، أن الإمام يريد كتابا ، به تثبت خلافته الدينية والزمنية ، ولا يمكن هذا إلا بهدم آراء الباطنية .

ب — ولكننا رأينا سابقا وصراحة ، ما قاله الغزالى فى مقدمة فضائح الباطنية ، من أنه : « أمر بتصنيف كتاب فى الرد على الباطنية » بل وحدد له الخليفة الموضوعات ، التى سيعمل على إثباتها و نفيها .

الأمر واحد ! !

والواقعة واحدة ! !

والمتحدث واحد ! !

ولكن رواية الألفاظ، ومعانيها، ومقاصدها، مختلفة تمام المخالفة، ومتباينة كل المباينة !!

أمّا أى الأمرين يجب أن نصدق ؟

هل الأمر الأول، وهو أنه : « **أمر بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهبهم** » ؟ فيتناسب مع رأيه المفهوم فى المنقذ، من أنه درس التعليمية ليبحث فيها عن الحق، وليعثر على الحقيقة.

أو الأمر الثانى : وهو أنه : « **أُمر بتصنيف كتاب فى الرد على الباطنية** » ؟ فيتناسب مع تصريحه فى مقدمة كتابه المستظهرى، وأمر الخليفة نفسه.

١٩ — ترجيح فى غير احتياج

نعم إنى أعتقد أن قوله الثانى ؛ هو القريب إلى الحق، وذلك لأسباب أهمها :

أولا — لقرب هذا التصريح من الحادثة زمنيا، فهو له ذاكر ومتيقن.

ثانيا — لإدماجه فى المقدمة التى سيطّلع عليها الخليفة، فى الكتاب الذى سمى باسمه، مما يدل على أنه مطابق تمام المطابقة للأمر الصادر منه.

ثالثا — مطابقته وملاءمته، وانسجامه مع الظروف التى حكاها فى المقدمة كما رأيت.

رابعا — تحديد الأمر المستظهرى، للموضوعات التى يجب أن يتناولها الغزالى، والتى تؤكد لنا أنه أراد الرد والتسفيه والمناقضة،

لا كشف وجه الحق والصواب ، أيما اتفق ؛ شأن الباحث الحر ، والمفكر الطليق .

٢٠ — أشواك لا ورود فيها

بعد هذا ألا يمكننا أن نقول :

ا — إن الغزالى قال الحقيقة هناك — فى المستظهرى — « ولم يمكنه اخفاؤها بتاتا هنا — فى المنقذ — حيث أشار إليها من طرف خفى » ، لأنه يريد أن يُظهر الواقع ، فيروى الصدق ، ويزداد للخليفة قربا بإظهار طاعته ، وسرعة تلبيته .

ويريد أن يُرى العامة ؛ أنه الرجل الوحيد ، الذى لجأ إليه الخليفة ، ليقى سلطانه كيد الكائدين ، وليثبت دعائم السنيين .

ب — وأن نقول أيضا : إنه أخفى الحقيقة ( بقدر المستطاع ) هنا — فى المنقذ — ، لأنه يريد أن يظهر بمظهر الباحث عن الحق ، والجارى وراء الحقيقة .

فيقنعنا بأن الحق رائده أينما كان ، والحقيقة مطلبه أينما وجدت ، سيما أنه الآن يؤرخ حياته الفكرية ، ليخلدها بين المفكرين ، ويدافع عن نفسه العلمية « التى شَرُفتْ بالخطاب من بين سائر العالمين[1] » .

إذاً فليتحدث عن نفسه ؛ هنا وفى المنقذ ، لا كما كان ؛ ولكن كما كان يجب أن يكون ! !

بعد هذا نعيد السؤال السابق وهو :

هل يمكن أن يخفى الغزالى الحقيقة ؟

---

(١) « مقدمة فضائح الباطنية ص ٢١ » .

ونحن متأكدون من أنك ستجيب عليه بعد الذى تقدم .

١٩ — هل اختفاء الحقيقة فى اعترافات الغزالى كان قصدا ؟

ولكن هل اختفاء الحقيقة فى اعترافات الغزالى كان قصدا ؟؟

وهل هذا الاختفاء إذاً ؛ يقدح فى الأمانة العلمية للغزالى ؟؟

وهذا ما سنتحدث الآن فيه .

نعم ؛ إننا لمسنا سابقا ، أن الحقيقة اختفت فى اعترافات الغزالى ؛ ما فى ذلك شك .

ولكن لماذا لا يكون اختفاؤها مظهراً لأحد أمرين :

أولا — زلّت قلمه ، فلم تواته الألفاظ التى أرادها ، لتعبر عن الحقيقة ، أى أنه أراد معنى ، وأرادت الألفاظ سواه ... إلى غير ذلك من الاعتذارات اللفظية اللغوية .

وهذا طبعا ما نجل عنه أصغر قارىء للعربية ، بل أقل كاتب ، فضلا عن الغزالى ، صاحب الأسلوب الفحل ، واللفظ الذى لا يضارع ، فهو يضحى باللفظ ، ولا يضحى بالمعنى بأى حال من الأحوال ، لأنه هو القائل عند ما طلبت منه العناية بألفاظه وتراكيبه :

« إنى أقصد المعانى وتحقيقها ، دون الألفاظ وتلفيقها » .

ثانيا — أو أنه نسى الحقيقة ذاتها ، فكتب ما كتب فى المنقذ معتقداً أنه الصدق .

ولكن هنا فى المنقذ « وفى المنقذ لا غير » شواهد وشواهد ، تدل على أنه ذاكر للحق ، متيقظ للواقع ، ومن ذلك :

ذِكره أولا — أنه درس وكتب عن التعليمية ، كأحد المذاهب التى بحث فيها ، علّه يعثر بين طياتها على الحق ، أى أنه يريد أن يؤكد ؛ أنه لم يبحثها ويسفهها بدافع من السلطان ؛ بل بدافع من نفسه ، ليعثر على الحقيقة .

ذِكره ثانيا — أنه عنّ له أن يبحث فى مقالاتهم ، أى أنه يريد أيضا ، أن يؤكد لنا ، أنه لم يؤمر بذلك ، بل عن له ذلك من نفسه .

ذكره ثالثا — أنه اتفق أن صدر إليه أمر جازم ، فلم يسعه مدافعته .

أى أنه إذاً : ذاكر للذى وقع ، متيقظ للذى حدث ، وهو أنه أمر بذلك ، ولما وجد أنه لا يمكنه إخفاؤه تماما ، أراد أن يفهمنا أنه كان لديه باعث داخلى ، وافق باعثا خارجيا ، وهاتف نفسى ، اتفق مصادفة ؛ مع أمر سلطانى .

وأخيراً — اختياره لفظا ذا وجهين ، وهو « أنه أمر بتصنيف كتاب يكشف حقيقة مذهبهم » . وذلك حتى يتلاءم مع ما أراد أن يفهمنا إياه ، من أنه درسها كباحث عن الحق ، وكمنقّب عن الحقيقة ، وحتى يتلاءم أيضا مع الحق والواقع ، الذى لا يمكنه إخفاءه ، وهو أنه درسها ، لأمر جازم من السلطان ، لم يمكنه مدافعته .

ومن الغريب أننا فى تلك المقدمة « مقدمة المستظهرى » ، نلمس صراحة قوية فى التعبير عن غرضه المقصود ، وهو المعنى

الثانى ، وعن الباعث الخارجى ، لمسا ماديا !! بحيث لا يمكن أن يتلاءم معه بتاتا الباعث النفسى" ؛ بأى تأويل أو تخريج ، وعلى أية صورة من الصور ، أو أية حالة من الحالات .

بعد هذا ؛ نعيد السؤالين ، ونحن واثقون من أنك ستجيب عليهما ، بدون عناء أو تعسف ، وهما :

هل اختفاء الحقيقة فى اعترافات الغزالى كان قصدا ؟

وهل هذا الاختفاء إذا كان قصدا ، يقدح فى الأمانة العامية للغزالى ؟

# الباب السادس

## ١ — اعترافات الغزالى الصوفية

## أو لماذا اعتزل نشر العلم ببغداد وعاد الى نشره بنيسابور ؟

١ — كيف درس الغزالى علم الصوفية وحصله ؟
٢ — لم أضطر أن ينخرط فى سلكهم عمليا ؟
٣ — ملاحظة الغزالى حاله وأعماله .
٤ — الغزالى على شفا جرف هار !!
٥ — إجهاد فى التفكير ، وحيرة فى التنفيذ !!
٦ — هواجس الشيطان ، وآمانى النفس ، وخوف العاقبة ، تسيطر على الغزالى .
٧ — الحيرة تبلغ منتهاها ، فتورث عقلة فى لسانه ، وحيرة فى قلبه .
٨ — سقوط الاختيار عنده ، والالتجاء إلى الله ، لجوء الاضطرار .
٩ — الغزالى بين الحقيقة والرياء .
١٠ — عمل الغزالى هدف للتجريح من الأئمة والعامة .
١١ — فراق بغداد ، وتفريق المال .
١٢ — دمشق موطن العزلة والخلوة .
١٣ — فلتسر القافلة إلى الحجاز على بركة الله .
١٤ — الخلوة بين الزمان ، والمعاش ، والأوطان .
١٥ — «أمور لا يمكن إحصاؤها ولا استقصاؤها» .
١٦ — الصوفية ومشكاة النبوة .
١٧ — الشروط الواجب توفرها فى سالك طريق الصوفية .
١٨ — ماذا رأى الغزالى ؟ وماذا انتهى إليه أمره ؟
١٩ — ماذا فهمه بالذوق ؟
٢٠ — درجات المعرفة .
٢١ — الدوافع التى دفعته للخروج من عزلته .
٢٢ — إجهاد فى التفكير ، وحيرة فى التنفيذ ! !
٢٣ — وساوس النفس ، ودواعى الهدوء والاطمئنان .
٢٤ — السلطان يدعو الغزالى إلى التدريس بنيسابور .

## ب — كشف النقاب عما فات ، وتصويب لما هو آت



## ح — قصة الغزالى الصوفية ، كما هى الحق والواقع

## د — ماذا بعد الخلوة والعزلة ؟

## هل الانخراط فى سلك الصوفية المرغوب فيه ؟

## أو الرجوع الى التدريس المرغوب عنه ؟

## ١ — اعترافات الغزالى الصوفية كما سطرها بنفسه

## أو

## لماذا اعتزل نشر العلم والناس ببغداد وعاد الى ذلك بنيسابور ؟؟

بعد أن خبر الغزالى حال التعليمية ، نفض اليد عنهم ، لأنه لم يعثر على يقينه فى واديهم [١] .. ولهذا يقول بعد ذلك :

« أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ، وقد علمت أن معرفة طريقتهم ، لا تتم إلا بعلم وعمل [٢] » .

١ — كيف درس الغزالى علم الصوفية وحصله ؟

أما تحصيل العلم : فكان أيسر عليه من العمل ، إذ بدأ بتحصيله من مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب للمكى ، ومثل كتب المحاسبى ، والجنيدى ، والشبلى ، والبسطامى ، وغيرهم [٣] .

فاطلع على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصّل ما يمكن أن يحصله عن طريق التعلم والسماع [٤] .

٢ — لم اضطر أن ينخرط فى سلكهم عمليا ؟

أما العمل فقد ظهر له :

أولا — « أن أخص خواصهم ، لا يمكن الوصول إليه إلا بالذوق ،

---

(١) « منقذ ٥٧ »
(٢) « منقذ ص ٥٨ »
(٣) « منقذ ص ٥٩ »
(٤) « منقذ ص ٦٠ »

والحال وتبدل الصفات ، فهم يقينا أرباب أحوال ، لا أصحاب أقوال »[1] .

وظهر له ثانيا أيضا —

« أن لا مطمع له فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطعُ علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى »[2] .

وظهر له ثالثا يقينا :

« أن ذلك كله لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل ، والعلائق »[3] .

٣ — ملاحظة الغـزالى حاله وأعماله ونيته

وبعد أن تأكد الغزالى مما تقدم أخذ — على ضوء الشروط السابقة — فى ملاحظة :

أحواله : « فوجد نفسه وقد انغمس فى العلائق ، بل وأحدقت به من كل جانب[4] » .

أما أعماله : « وأحسنها التدريس والتعليم ، فوجد نفسه ، وقد أقبل على تدريس وتعليم علوم غير مهمة ، وغير نافعة فى طريق الآخرة[5] » .

أما نيته فى التدريس « فوجدها غير خالصة لوجه الله ، بل

---

(١) « منقذ ص ٦٠ ، ٦١ »
(٢) « منقذ ص ٦٢ »
(٣) « منقذ ص ٦٢ »
(٤) « منقذ ص ٦٢ ، ٦٣ »
(٥) « منقذ ص ٦٣ »

باعثها ومحركها طلبُ الجاه، وانتشار الصيت[1]».

٤ — الغزالى على شفا جرف هار!

وهنا يتيقن: «أنه على شفا جرف هار، وأنه قد أشفى على النار، إن لم يسرع ويشتغل بتلافى هذه الأسباب، والأحوال[1]»

٥ — اجهاد فى التفكير، وحيرة فى التنفيذ!!

أخذ الغزالى بعد هـذا «فى التفكير مدة من الزمان، تفكير المختار لا تفكير المضطر[1]» وهنا يقول:

«أصمم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال، أقدم رجلا وأؤخر أخرى، لا تصفو لى رغبة فى طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملةً فتفترها عشية[1]».

وصارت شهوات الدنيا، تجاذبنى سلاسلها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى: الرحيل الرحيل!! فلم يبق من العمر إلا القليل!! وبين يديك السفر الطويل!! وجميع ما أنت فيه من العمل والعلم رياء وتخييل[1]!!

فان لم تستعد الآن للآخرة! فمتى تستعد؟؟

وإن لم تقطع الآن! فمتى تقطع؟؟

وأخيرا ينبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار[1]!!

٦ — هواجس الشيطان، وأمانى النفس، وخوف العاقبة

ولكن الشيطان يعاوده ويقول:

«هذه حالة عارضة، وحذار من مطاوعتها، فهى سريعة الزوال، وأن أذعنت لها، وتركت هـذا الجاه العريض، والشأن المنظوم،

---

(١) «منقذ ص ٦٣»

الخالى عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم ، ربما ألفت إليه نفسك ، ولا تتيسر لك المعاودة »[1].

٧ — الحيرة تبلغ منتهاها ، فتورث عقلة فى اللسان ، وحزناً فى القلب .

ولكن الغزالى لا يزال تتلقفه شهوات الدنيا ، ودواعى الآخرة ، ما يقرب من ستة أشهر ، أولها رجب ، سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وهنا يقول :

« وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، فعقل الله لسانى ، حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوما واحدا ، تطييبا لقلوب المختلفة إلىّ ، ولكن لسانى كان لا ينطق بكلمة ، ولا أستطيعها البتة[1].

وزاد الأمر ، أن أورثت هذه العُقلة فى اللسان ، حزنا فى القلب ، بطل معه قوة الهضم ، وقَرَم[2] الطعام والشراب ، فكان لا تنساغ لى شربة ، ولا تنهضم لى لقمة ، فضعفت القوى ، وقطع الأطباء طمعهم فى العلاج ، وقالوا :

هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إليه بالعلاج ، إلا بأن يتروّح السر عن الهم الملمّ[1] » .

٨ — سقوط الاختيار والالتجاء إلى الله لجوء الاضطرار

وهنا يقول :

« ثم لما أحسست عجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ،

---

(١) « منقذ ص ٦٤ »   (٢) شهوة .

والأهل ، والولد ، والأصحاب[1] » .

٩ — الغزالى بين الحقيقة والرياء

لا زال الغزالى يتابع قائلا :

« وهنا أظهرت عزمى على الخروج إلى مكة ، وأنا أورّى فى نفسى سفر الشام حذرا أن يطلع الخليفة ، وجملة الأصحاب ، على عزمى فى المقام بالشام ، فتلطفت بلطائف الحيل فى الخروج من بغداد ، على عزم ألا أعاودها أبدا[1] » .

يقول :

١٠ — عمله هدف للتجريح من الأئمة والعامة

« واستهدفت لكلام أئمة أهل العراق كافة ، فلم يكن فيهم من يجوّز أن يكون الأعراض عما كنت فيه سببا دينيًّا ، لأنهم ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى فى الدين ، ولكن كان ذلك مبلغهم من العلم[1] » .

« وأما عامة الناس : فقد ارتبكوا فى الاستنباطات : فمن بَعُدَ عن العراق ؛ ظن أن ذلك لشعور بالوحشة من جهة الولاة[2] .

وأما من قرب منهم : فكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب علىّ ، وإعراضى عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم ، فلا يسعه إلا أن يقول :

« هذا أمر سماوى ، وليس له سبب ، إلا عين أصابت أهل الإسلام ، وزمرة العلم[2] » .

---

(١) « منقذ ص ٦٥ » .  (٢) « منقذ ص ٦٦ » .

يقول الغزالى :

١١ — فراق بغداد وتفريق المال

« ففارقت بغداد ، وفرقت ما كان معى من المال ، ولم أدّخر إلا قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق مرصد للمصالح ، لكونه وقفا على المسلمين ، ولهذا لم أر فى العالم مالا يأخذه العالِم لعياله ، أصلح منه[1] » .

١٢ — دمشق الشام موطن العزلة والخلوة

« ثم دخلت الشام ، وأقمت به قريباً من سنتين ، لا شغل لى إلا العزلة ، والخلوة ، والرياضة ، والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق ، وتصفية القلب لذكر الله تعالى ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى .

وأخيراً دخلت بيت المقدس ، فكنت أدخل كل يوم الصخرة ، وأغلق بابها على نفسى »[1] .

١٣ — فلتسر القافلة إلى الحجاز على بركة الله

« ولكن تحركت فى نفسى داعية فريضة الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله محمد ، بعد الفراغ من زيارة خليل الله إبراهيم ، فسرت إلى الحجاز »[2] .

يقول هو نفسه :

١٤ — الخلوة بين الزمان والمعاش والأوطان

« ولكن جذبتنى الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن : فعاودته ، بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه ؛ فآثرت العزلة

---

(١) « منقذ ص ٦٦ » . (٢) « منقذ ص ٦٧ » .

أيضا ، حرصا على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر » .

« غير أن حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، كانت تغيّر فىّ وجه المراد ، وتشوش صفو الخلوة ، وكان لا يصفو الحال لى إلا فى أوقات متفرقة .

لكنى مع ذلك ظللت لا أقطع طمعى منها ، فتدفعنى العوائق عنها ، ولا ألبث إلا أن أعود إليها .

ودمت على ذلك عشر سنوات »[1] .

١٥ — أمور لا يمكن إحصاؤها ولا استقصاؤها

« وفى أثناء هذه الخلوات ، إنكشفت لى أمور ، لا يمكن إحصاؤها ، ولا استقصاؤها ، ولكن القدر الذى أذكره لينتفع به :

١٦ — الصوفية ومشكاة النبوة

انى علمت يقيناً : أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق ، وأخلاقهم أزكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء ، وحكم الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض ، نور يستضاء به »[2] .

يقول :

---

(١) « منقذ ص ٦٧ » .    (٢) « منقذ ص ٦٨ »

١٧ — الشروط الواجب توفرها فى سالك طريق الصوفية

وبالجملة فماذا يقول القائلون فى طريقة :

طهارتها — وذلك أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى .

ومفتاحها — وذلك جار منها مجرى التحريم من الصلاة — استغراق القلب بالكلية بذكر الله

وآخرها — الفناء كلية ، فى الله[1] .

١٨ — ماذا رأى الغزالى وماذا انتهى إليه ؟

يقول :

« ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات ، حتى أنهم فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ، ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال ، إلى درجات يضيق عنها نطاق المنطق ، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلا ويشتمل لفظه على خطأ صريح ، لا يمكنه الاحتراز عنه[2] .

وعلى الجملة : ينتهى الأمر إلى قرب تكاد تتمثله طائفة «الحلول» ، وطائفة « الاتحاد » ، وطائفة « الوصول » ، وكل ذلك خطأ ، لأن من لابسته تلك الحالة ، لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره

فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر[3]

---

(١) « منقذ ص ٦٨ » . (٢) « منقذ ص ٦٩ » .

(٣) « منقذ ص ٧٠ » .

١٩ — ماذا فهمه بالذوق ؟

ومن لم يرزق من هذه الطريقة ؛ شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم ، وكرامات الأولياء على التحقيق ، بدايات الأنبياء .

وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حين أقبل إلى جبل حراء ، وحين كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : إن محمداً عشق ربه »[1] .

٢٠ — درجات المعرفة

(أ) « فتحقيق هذه الأحوال بالبرهان هو : العلم .

(ب) وملامسة عين تلك الحالة هي : الذوق .

(حـ) والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن هو : الإيمان .

ووراء غير المتصفين بهذه الدرجات السالفة ، قوم جهال يسخرون ويقولون :

تعجبوا وانظروا كيف يهذون ؟! »[2] .

٢١ — الدوافع التي دفعته للخروج من عزلته

أما وقد بان للغزالي مرة بالذوق ، وأخرى بالعلم البرهاني ، وثالثة بالقبول الإيماني :

أن الإنسان خلق من بدن وقلب ، وأن للدين أدوية لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الأنبياء .

وكما أن أدوية البدن تتركب من عناصر مختلفة النوع والمقدار ، فكذلك أدوية القلب ، قد تتركب من عبادات مختلفة النوع والمقدار كذلك ، فترى السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح

(١) « منقذ ص ٧٠ » . (٢) ( منقذ ص ٧٢ ) .

نصف صلاة العصر فى المقدار .

ولا يعرف سر هذا ؛ إلا النبي طبيب القلب ، كما لا يعرف سر ذلك ؛ إلا الطبيب مداوى البدن[١] .

أما وقد رأى الغزالى — على ضوء النظرية السابقة — فتور الخلق وضعف إيمانهم .

فمنهم من خاض فى علم الفلسفة ، أو عرف شيئاً من التصوف ، أو انتسب إلى التعليميين ، أو وسم بالعلم بين الناس أجمعين[٢] .

أما وقد رأى الغزالى : أن كل هؤلاء يوردون شبهاً ؛ وإن وهت حلقاتها ، وظنونا ؛ وإن تخاذلت وتهافتت أجزاؤها ، تدعو إلى طرح الدين ، ومجانبة ما دعا إليه الرسول الأمين » .

يقول الغزالى :

« أما وقد رأيت أن نفسى مُلِبَّةً[٣] ، بكشف هذه الشبهة ، لدرجة أن إفضاح هؤلاء ، أيسر عندى من شربة ماء ، وذلك لكثرة خوضى فى علومهم ، صوفية ، أو فلسفية ، أو تعليمية ، أو موسومين بسمة العلم والمعرفة »[٤] .

٢٢ — إجهاد فى التفكير وحيرة فى التنفيذ

أما وقد رأيت كل ذلك ، فقد انقدح فى نفسى ، أن فضح هؤلاء متعين فى هذا الوقت محتوم .

فماذا تغنينى الخلوة والعزلة ؟ وقد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك »[٥] .

---

(١) (منقذ ص ٨٢) . (٢) (منقذ ص ٨٤و٨٥) . (٣) ملبئة بالرغبة .
(٤) (منقذ ص ٨٧) . (٥) (منقذ ص ٨٨) .

٢٣ — وساوس النفس ودواعي الهدوء والاطمئنان

فقلت في نفسي :

«ومتى تستقل أنت بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ؟ والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق ، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم ، وأنى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ؟

ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر .

فترخصت بيني وبين الله تعالى ، بالاستمرار على العزلة ، تعللا بالعجز عن إظهار الحق بالحجة[١] » .

٢٤ — السلطان يدعو الغزالي للتدريس بنيسابور

« ولكن الله قدّر أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حداً ؛ كان ينتهي لو أصررت على الخلاف ، إلى حد الوحشة » .

وهنا يقول : « إن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة ، والكسل ، طلب عز النفس ، وصونها عن أذى الخلق .

فلِمَ ترخص نفسك بعسر مقاساة الخلق ؟ والله تعالى يقول :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا ، حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين[٢] » .

---

(١) (منقذ ص ٨٨) . (٢) ( منقذ ص ٨٩ ) .

٢٥ — كل ما حول الغـزالى يدعو إلى ترك العزلة

يقول :

«ولهذا شاورت فى ذلك ، جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشـارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ، وانضاف لذلك ، منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدرها الله سبحانه وتعالى على رأس هذه المائة ، وقد وعد بإحياء دينه على رأس كل مائة[1] » .

٢٦ — النهوض إلى نيسابور

« فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسّر الله تعالى الحركة إلى نيسابور ، للقيام بهذا المهم ، فى ذى القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة[2] » .

٢٧ — بين الماضى والحاضر

يقول :

« وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة ، وهذه حركة قدرها الله تعالى ، وهى من عجائب مقدّراته ، فلم تنقدح فى قلبى العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد ، والنزوع عن تلك الأحوال ، مما يخطر إمكانه بالبال أصلا ، والله تعالى مقلّب القلوب والأحوال ، وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمٰن[2] » .

٢٨ — تدريس وتدريس

« وأنا أعلم : أنى وإن رجعت إلى نشر العلم ؛ فما رجعت ، فإن الرجوع عَوْد إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العـلم الذى يكسب به الجاه ، وأدعو إليه بقولى وعملى ، وكان ذلك

---

(١) « منقذ ص ٨٩ » . (٢) « منقذ ص ٩٠ » .

قصدي ونيتي .

وأما الآن فأنا أدعو إلى العلم ، الذى به يترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبته .

هذا هو الآن نيتي ، وقصدى وأمنيتي ، يعلم الله ذلك مني »[1] .

٢٩ — غرضه من الخروج من بغداد

« وأنا أبغى أن أصلح نفسي ، وغيرى ، ولست أدرى : أأصل إلى مرادى ، أم اخترم دون غرضي ؟

ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة ، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وأنى لم أتحرك ، ولكنه حركني ، وأنى لم أعمل ، ولكنه استعملني ، فأسأله أن يصلحني أولا ، ثم يصلح بى ، ويهديني ، ثم يهدى بى ، وأن يريني الحق حقا ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلا ، ويرزقني اجتنابه ، إنه سميع مجيب[2] » .

٣٠ — قصة

نعم ؛ هذه هى قصة الغزالى الصوفية ، والتى ترى فيها سبب تركه التدريس ببغداد ، وعزلته التى دامت عشر سنوات أو تزيد ، وترى فيها أيضاً ، سبب انغماره فى بحر الصوفية المتلاطم الأمواج ، تحت ضغط نوبة نفسية ، وحيرة قلبية ، ثم سبب رجوعه إلى نشر العلم بنيسابور .

نعم هذه هى قصته ، قصصناها كما رواها لسانه وقلمه .

وها نحن نبدأ قصها من جديد ، كما رواها المنطق والحق ؟ والواقع ، بل كما خطها هو نفسه ، فى سجل التاريخ الخالد .

---

(١) « منقذ ص ٩١ » .

(٢) « منقذ ص ٩٠ » .

## ب – كشف النقاب عما فات، وتصويب لما هو آت

ولكن: هل يمكنك أيها الباحث، أن تلخص ما كتبت، وتصوّب نحو الهدف الذى تريد، وتعطينا نتائج فى سطور ؟؟

نعم؛ أريد أن أجعلك تلمس:

٣١ – لماذا كتب الغزالى المنقذ ؟

أن الغزالى كتب تاريخ حياته فى المنقذ، ليدافع عن نفسه، وليفهّم الناس جميعاً أسباب تناقضه فى آرائه وطفراته، والدواعى إلى عزلته وخلواته، وأخيرا السبب فى الرجوع إلى التدريس وخصوماته، فيدعو لطريقه الذى سلكه، ولرأيه الذى اعتنقه، وينزههما من كل خطل، ويبرّئهما من أى زيغ أو خطأ، وليجعلك تؤمن أخيرا:

بأن نفسه قد اتصلت بالله، وأن رأيه قد استمد من نور النبوة، وليس على وجه الأرض بعد نور مشكاة النبوة، نور يستضاء به.

٣٢ – لماذا تكلم عن نظريتى الشك واليقين؟

وأن الغزالى أيضا؛ قدم بين يدى كتابه المنقذ: نظريتى الشك واليقين، ففرض أنه شك؛ ليدلك على أنه بحث بفكر طليق، وفرض أنه رجل اليقين؛ ليدلك على أن الله خصه بقبس من عنده، ملأ صدره، وأنار قلبه.

٣٣ – لماذا رفض علم الكلام ؟

وأنه فرض أيضاً. أن علم الكلام لم يكن فى حقه كافيا، ولا

لدائه الذى يشكوه شافيا ، لأن رجاله اعتمدوا على التقليد ، وإجماع الأمة ، ومجرّد القبول لآى القرآن ، وأخبار محمد عليه السلام[1] .

٣٤ — لماذا درس بنظامية بغداد ؟

وأنه عندما ظفر بكرسى فى مدرسة بغداد ، أو بعمود فى النظامية ، سنة ٤٨٤هـ ، وكانت سنه حينئذ أربعاً وثلاثين سنة ، وهى سن الدأب والنشاط والإنتاج ، وكذلك سن الأمل العريض ، والرجاء الفسيح .

أقول : إنه عندما ظفر بهذا الكرسى ، بعد أن جاهد فى الحصول عليه ؛ وبعد أن ظل يختلف بسببه إلى نظام الملك فى العسكر ، ست سنوات كاملات[2] .

نعم ؛ أقول : إن الغزالى عندما تربع على هذا الكرسى ، وجد أن هناك أساتذة كثيرين أمثاله .

ولكنه لا يرضى إلا بأن يكون أستاذها الأول ، وفريد عصره ، ونسيج وحده ، فبماذا ؟

٣٥ — لماذا ناقش الفلاسفة ؟

بالرد على الفلاسفة : لأن المتكلمين الذين ناقشوهم ، إنما ردوا عليهم بكلمات معقدة ، ظاهرة التناقض والفساد[3] .

إذاً ليدرس الفلسفة ، ويناقش الفلاسفة ، ويؤلف مقاصده وتهافته .

---

(١) « منقذ ص ١٩ » .

(٢) نعم فكرسى النظامية — ويا له من كرسى ! ! — كان يسيل له لعاب الأجلاء ، بل كان بسببه يغير العلماء مذاهبهم ، فها هو ابن الدهان ، يقلب مذهب إلى شافعى ، بعد أن كان حنفيا .

(٣) « منقذ ص ٢١ » .

ولكن الفلسفة مركب لا يدنى من الشهرة، إذ هى ميدان الخاصة من العلماء، وقليل ما هم.

أما العامة؛ أما جمهور الشعب؛ فلا يهتم بها ولا يفهمها.

أما السلطان؛ فهو يريد مايدعم به ملكه، ويكبت به أعداءه.

٣٦ — لماذا ناقض التعليمية؟

نعم؛ إن الغزالى يظفر بأمنيته[١] عندما يطلب منه المستظهر بالله، نقاش التعليمية، ونضال الباطنية، فينشر كتباً، ويبسط تواليف[٢].

٣٧ — لماذا انخرط فى سلك الصوفية؟

ولكن الغزالى مع هذا لا زال أمله عظيما، وتوقانه إلى انتشار الاسم، وذيوع الصيت، أطول وأعرض، فما هو الطريق؟

نعم؛ وكما قلت سابقاً:

لأفرض أنى الغزالى، فأحيط نفسى بظروفه، وعوامل بيئته، فماذا أرى؟ أو ماذا يرى هو؟

يرى الجمهور الإسلامى فى ذلك الوقت، كما هو فى كل زمان ومكان، لا يحترم إلا المتصوف؛ صاحب الكرامات، ومن هو فى زمرة الأولياء، والمقربين إلى الله.

يرى أيضاً؛ أن هؤلاء الأشخاص، فضلا عن أنهم مسيطرون على العامة، فهم مقربون من الخاصة، لأن الخاصة يرون فى تقريبهم إياهم، تحبباً للعامة، وتزلفاً للشعب.

يرى الغزالى ذلك كله، بل يراه رأى العين، عندما يختلف

---

(١) «أمنية إرضاء السلطان». (٢) «مقدمة فضائح الباطنية السابق الذكر».

إلى نظام الملك ، فيرى أنه ما كان يحترم إلا أدعياء العلم ، وفقراء الصوفية ، فيقوم إليهم عند دخولهم عليه ، احتراماً لهم ، ويقربهم من مجلسه ، ويدنيهم من مرتبته ، ولما سئل عن ذلك قال :

« إن هؤلاء إذا قربتهم منى ، أثنوا علىّ ، بما ليس فىّ » .

يرى ويعرف الغزالى أيضاً : أنه ألف فى الشريعة ، فكتب الوجيز ، والوسيط ، والمبسوط .

وكتب فى الأصول ، وعلّم علم الكلام ، ودرّس فى النظامية ، وناقش الفلاسفة وهدمهم ، وناقض التعليمية و . . .

ولكن كل هذا قليل ؛ إذا قيس بهذا القلب الكبير ، كل هذا ضئيل ؛ بجانب هذا الأمل العريض ، والشهرة العلمية المبتغاة .

بل ؛ يعرف الغزالى أكثر من هذا !

٣٨ — الغزالى رجل القوة والبطولة

يعرف أنه فعل ما تقدم ؛ لا حباً فى العلم ، ولا طمعاً فى مرضاة الله ، وإنما فعل أحسن أعماله وهو التدريس ، قصداً لطلب الجاه ، ورغبة فى انتشار الصيت[1] » .

هذا قوله الفصل ، وذلك اعترافه الصريح .

الله ؛ الله ؛ أيها الشيخ ، إنك لرجل قوى وبطل ، نعم قوى ؛ لأنك احتملت ما لم يحتمله الناس ، فأظهرت للتاريخ نفسك سافرة عن حقيقتها ، وما همك أن يحكم لك أو عليك ، بينما خاف معظم الناس من حكم التاريخ . وهو قاسٍ غير رحيم !! فقالوا بلسانهم

(١) « منقذ ص ٦٣ » .

ما ليس فى قلوبهم !

نعم ؛ وبطل ، لأنك أول من خط هذه الصراحة فى سجل الإسلام ؛ ومن علماء المسلمين . فأبنت للناس ما تنطوى عليه ضلوعك ، وما يختلج فى قلبك ، إن شراً وإن خيراً ، كأنك لم تكن عسئول عما تحس وتعترف ، وكأنك لا تملك من أمرك شيئا مؤمنا : أن « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » كما قلت ذلك صراحة فى المنقذ [1] .

نعم إلى هذا التاريخ — تاريخ خروجك من بغداد — وقد كان عمرك حوالى الثامنة والثلاثين من السنين ، وأنا أومن معك إيمانا لاشك فيه ، بأن عملك كله — من أوله إلى آخره — كان المقصود به كما قلت : « هو طلب الجاه ، وذيوع الاسم ، وانتشار الصيت » [2] .

٣٩ — الغزالى يريد التوفيق بين علم الظاهر وعلم الباطن

نعم ؛ رأى الغزالى ، وعرف أنه لم يسح فى الأرض ، لم يكتب إلى الناس ، لم يخلد اسمه بما هو خالد وأبدى ، وإذا كان قد كتب فى الشريعة ، وفى الأصول و ... فهناك كتب كثيرة تشبه ما كتب .

نعم عرف أنه وفق بين علم الكلام وعلم الفلسفة ، فأحيا الأول على حساب الثانية — كما يعتقد — ولكنه الآن ، يحس ويرى شيئاً جديداً ، يرى ميداناً أوسع .

يرى ، ويعرف ، ويحس أن التصوف — حينئذ — أصبح له نظام خاص ، وتقاليد محدودة ، وجد القشيرى قد دونها ، ونشرها

---

(١) « منقذ ص ٩٠ » . (٢) « منقذ ص ٦٣ » .

على الصوفية فى رسالته — القشيرية — فأضحت جماعة لها : نفوذ وسلطان ، وبها حركة ، وفيها حياة .

ووجد — قوت القلوب — للمكى ينشر نظريات الصوفية ، ويدافع عنهم ، ويؤسس علمهم ، ويذيعه بين الناس الذين تكاثروا على اعتناقه ، سيما العامة والفقراء ، وهم كل المسلمين فى ذلك الوقت .

ووجد أيضاً أن لعلماء الظاهر ، الذين يأخذون بظاهر القرآن ، ومنطوق الحديث ، أحكاما خاصـــة فى الفتيا ، وفى الفقه ، وفى المعاملات ، يتمثل ذلك فى مذهب أهل السنة والأشاعرة ، بعد أن أصبح هذا ، هو المذهب الرسمى للخلافة وللدولة ، وبعد أن اشتد ساعده بالمدارس النظامية ، التى أسسها نظام الملك ، والذى تعلم فيها الغزالى ، وعلم فى أشهرها .

أتى الغزالى فى القرن الخامس الهجرى ، فوجد ، وعرف ، وأحس ، ورأى كل هذا ؛ فتأكد من وجود عمل جليل وخطير ينتظره ، ورأى أن ميداناً للنشاط والإنتاج ، وذيوع الإسم ، وانتشار الصيت ، بل والخلود ، ينفسح له .

إذاً . ليتقدم الغزالى ، ويحمل العلم ، ويسد النقص ، الذى شعر به علماء الظاهر ، كما سد النقص ، الذى شعر به المتكلمون ، عند ما هدم الفلسفة بأسلوب علم الكلام — كما يعتقد —

إذاً . ليوفق بين مذهب الدولة الأشعرية الرسمىّ — السنّية — وهو علم الظاهر ؛ وبين ما يدين به العامة ؛ من تقاليد الصوفية ،

وهو علم الباطن .

فيؤلف كتاباً ؛ يجعل فيه للنهج الصوفى سلطانا أيما سلطان ، ليطفئ به ظماه ، ويستولى به على قلوب العامة ، والناس أجمعين .

ويحاول أن يجعل النهج الشرعى ، لا يتضارب مع النهج الصوفى ، بأى حال من الأحوال ، فلا يغضب الخاصة من العلماء والمفتين[1] .

ولكن كيف يكتب فى الصوفية ، ويعلى شأنها ، ويحمل علمها ؟

٤٠ – الغزالى يقوم بمراسيم الصوفية ليصبح صوفياً

إذاً . لابد له من أن يدرسها ، وقد عرفت أن هذا هو أسلوبه فى البحث والتحصيل ، كما حصل له عند ما ناقش الفلاسفة ، ورد على الباطنيين ! !

إذاً . فليتعلم علمهم ؛ ولهذا نراه « يطالعه حتى يأتى على كنه مقاصدهم العلمية ، ويحصل ما يمكن أن يحصل من طريق التعلم والسماع ، وذلك من كتب المكى والجنيدى والبسطامى و . . .[2]

ولكنه يجد أن هذا « ليس بكاف ، لأن من شرط طريقهم الإعراض عن الجاه ، والمال ، والهرب من الشواغل ، والعلائق[3] » .

إذاً . فليهيئ نفسه لذلك ، وليقم بالمراسيم المطلوبة ، حتى يجوز الامتحان كما يجب أن يكون ، وليعتزل الناس ، وليهرب من الخليفة ، ومن ألسنة القوم ، وأخيراً ؛ ليفر من بغداد ، ويعتزل بالشام .

ولكنا نراه وهو فى الخلوة بالشام ، يؤدى المراسيم الصوفية ،

---

(١) راجع مقدمة الأحياء ، وباب علم المكاشفة ، وعلم المعاملة فيه .

(٢) (منقذ ص ٦٠) . (٣) (منقذ ص ٦٢) .

ويسيح فى الأرض ، ويذيع آراءه ، ويؤلف كتابه الخالد « إحياء علوم الدين » .

ثم يرجع إلى العراق ، وبطوس ؛ يصبح قطب الغوث ، ووتد الأوتاد ، يحدث بلسان أهل الحقيقة ، ويحتل المكانة التى أرادها ، ويعتطى مقعد الشهرة ، الذى عمل لأجله سنوات معدودات ، فالعامة تحترمه ، والخاصة تجله .

٤١ — الغزالى يتغاضى عن الكثير ليحقق هدفه

ولم لا يكون كذلك ؟

وقد كان رجل الشرع : فهو فيه مدرس ومؤلف .

وكان بطل الفلسفة : فهو هادمها ومظهر تهافتها .

وكان مسفه الباطنيين ، ومبطل آرائهم .

وأضحى اليوم وأخيراً : زعيم الصوفيين ، حيث حصّل علمهم ، وقام بخلواتهم ، فأصبح إلى الله من المقربين ، فرأى أشياء لا يمكن إحصاؤها ، ولا استقصاؤها ، وأضحت جميع حركاته وسكناته كحركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرها وباطنها ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة[1] .

أما السلطان : فالغزالى يعيش تحت حمايته ، وبخدمته ، فهو عنه راض ، وله مقرب .

نعم . هو يرى المنكر ؛ ولا يريد أن ينهى عنه ، يرى حرمات الإسلام تداس ؛ وهو قادر على فضح من يدوس تلك المحرمات

---

(١) « منقذ ص ٦٧ و ٦٨ »

ولا يفعل ، لأنه يريد أن يسالم الناس ولا يعاديهم ، حيث يعايشهم ، ولا يمكنه أن يقاومهم[1] .

فليظل على الاعتزال ما دامت الشهرة قد حصلها ، والمكانة التى أرادها قد اقتعدها ، فالعامة ، والخاصة ، والسلطان ، كل أولاء عنه راضون ، وبشهرته معترفون .

وإذا كان الله يناديه ؛ ليحمى دينه ، ويثبت شرائعه ، « فليترخص وليبق على عزلته[2] » .

أما إذا ناداه السلطان ؛ وألزمه لينهض إلى نيسابور ، ويدرس بنظاميتها ، فلا بد أن يجيب ، حرصا على مودة السلطان . « وقد بلغ الإلزام من الخليفة حدا كان ينتهى لو أصرّ على الخلاف إلى حد الوحشة[3] » .

وإذا كان الغزالى قد قبل إغضاب الله ؛ حيث ترخص فيه ، وإذا كان قد عمل على عدم إغضاب العامة ؛ حيث هو فى احتياج إليهم ، فلن يمكنه الترخص فى أمر السلطان ، ولهذا ؛ نراه بعد أن ينفذ أمر الإمام ، بالنهوض إلى نيسابور ، ويقدم الدليل على طاعته بالتدريس زمنا ما ، يترك التعليم برضاً من السلطان ؛ حيث اعتلت صحته ، وضعفت قواه ، ويرجع إلى طوس ، وقد تخطى الخمسين .

وهناك . وبعد قليل ، تصعد روحه إلى الرفيق الأعلى ، هادئة مطمئنة ، سعيدة قريرة .

---

(١) « منقذ ص ٨٨ » (٢) « منقذ ص ٨٨ » . (٣) « منقذ ص ٨٨ » .

نعم . فقد وصل إلى كل ما طلب ، وانتهى إلى جميع ما أراد ، تبجيل من الجميع ، وشهرة لا حد لها بين الخافقين ، وخلود تذكيه الأيام قوة ، ويكسبه مر السنين حياة .

٤٢ — لماذا هذا الإفصاح المفحم ؟

لماذا كل هذا الإسفار والإيضاح ؟ ؟

نعم . كتبت كل هذا : فأسفرت النقاب عما فات ، وصوبت نحو ما هو آت .

لقد أفصحت عن ذلك ، قبل الإتيان على الفصل الأخير من قصة الغزالى ، وهو الفصل الأهم ، بل هو فصل الخطاب ، لأن حوادث هذا الفصل ، كانت هى السبب المباشر لتاريخه حياته ، ولأنك فيه سترى الفكرة التى حكيتها لك مجسمة ، لا لبس فيها ولا غموض .

نعم حشدت بين يديك ، وقدمت أمام عينيك ، كل هذا ، قبل أن أنقد اعترافات الغزالى فى هذا الفصل ، فأرجو أن تعيره يا سيدى القارئ — أسماعاً صاغية ، وأذهانا واعية ، وأحاسيس مرهفة ، حتى إذا ما أتينا عليه ، أتينا على قصة الغزالى ؛ فطويناها ، ونشرناها .

طوينا ؛ ما أراده هو واحترمناه .

ونشرنا ؛ ما أراده الحق ، وسجله الواقع ، واتبعناه .

## حـ — قصة الغزالى الصوفية ، كما هى الحق والواقع

٤٣ — الغزالى ينسى الهدف الأول

انتهى الغزالى من بحثه عن الحق — الذى جهر دائما بأنه قام بهذه الدراسة لأجل العثور عليه — عند التعليمية فلم يجده لديهم .

وها هو ينتهى إلى الجولة الأخيرة ، فيدخل ميدان الصوفية ، ويهرول فيه بكل همته ، ويعبره ، ولا يشعرنا بأنه باحث عن شىء ، أو عثر على شىء ، اللهم ؛ إلا إذا كان الغزالى كما أفهمنا ضمناً :

قد آمن — قبلاً — إيماناً قوياً بأن الحق الذى ينشده ، هو فى طيات طريق الصوفية ، أو طريقهم هو الحق نفسه ، ومتى اصطدم به ، وعثر عليه ، آمن به واعتنقه ، لا على أنه مذهب يبحث فيه عن الحق ، بل على أنه هو كل الحق ، وكل اليقين .

٤٤ — هل هدف الغزالى من الخلوة والعزلة سعادة الآخرة ؟ أو الوصول إلى طريق الصوفية ؟

وكما رأيت سابقاً ؛ عند الكلام عن الأسباب التى اضطرته إلى الانخراط فى سلك الصوفية ، يصرح هناك بسببين :

١ — أنه لما كانت طريقة الصوفية ، لا يمكن معرفتها إلا بعلم وعمل :

أما العلم ؛ فلأن تحصيله من الأسس الأولى لمعرفة حقائق الأشياء ، ولذا فقد حصّله من كتبهم ، مثل ، ومثل .

أما العمل ؛ فلأن الصوفية أرباب أحوال لا أقوال ، ولأنه

لا يمكن الوصول إلى طريقتهم؛ إلا بالذوق، والحال، وتبدل الصفات، فقد اضطر إلى الخلوة والاعتزال، والاتجاه بالكلية إلى الله، طلباً لذلك.

نعم آمنا بهذه الوسيلة وهى:

«تبدل الصفات، والانخراط فى غمار الصوفية، وملابسة أحوالهم، والعزلة عن الناس، والبعد عنهم».

وأيضاً آمنا بهذه الغاية وهى:

«الوصول إلى طريقة الصوفية».

فما العلاقة بين هذا، وبين السبب الثانى، الذى أعلنه أيضاً كسبب للخلوة، وهو:

٢ — أنه قد ظهر يقيناً؛ ألا مطمع له فى سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله، قطع علاقة القلب عن الدنيا، والإعراض عن الجاه، والمال، والولد»[١].

أى إلى الخلوة والعزلة أيضاً.

فهل يريد الغزالى الوصول إلى طريقة الصوفية، كطريقة من طرق المعرفة واليقين؟

فيعتزل الناس، ويتجه إلى الله ليصبح متصوفا.

أو يريد سعادة الآخرة، فيعتزل الناس، والأهل، والمال، ويتجه إلى الله، ليصبح زاهداً؟

---

(١) (منقذ ص ٦٢).

وهل أراد الغزالى بتلك العزلة ، الهدفين معاً — طريق الصوفية ، وسعادة الآخرة — أو أراد أحدهما ؟

نعم . إن الغزالى فى الواقع لا يريد أن يفهمنا بإيضاح ماذا يريد ؟

لا لأنه غير واضح فى نفسه ، كما يعتقد كثيرون !!

لأنى أومن بأن الغزالى يفهم ما يريد ، وهو يكتب ويعرف ماذا يكتب ، ومتيقظ إلى الجهة التى تتجه إليها ألفاظه ، وإلى المسقط الذى تهوى إليه معانيه .

ولكنه يكتب كتابه للناس جميعاً ، فليُرد المعنيين معاً ، حتى يفهم المتصوفة والعامة ، أنه اعتزل طلباً للصوفية ، وحتى يفهم الخاصة ورجال الشرع ، أنه اعتزل طمعاً فى سعادة الآخرة ، وزهداً فى الحياة الدنيا .

ولهذا فلا مانع إذاً من ذكر الوسيلتين ، ولا مانع أيضاً من الجمع بين الغايتين ، ما دام يريد أن يخاطب الناس جميعاً ، حتى يفهمه الكل ، ويحترمه المجموع ، ويستحوذ على إجلال الناس كافة .

٤٥ — الجاه ، والمال ، والشواغل ، والعلائق ، عند الغزالى قبل خلوته

بعد هذا يؤكد لنا الغزالى :

أن العزلة الصحيحة « لا يمكن أن تتم إلا بالإعراض عن الجاه ، والمال ، والشواغل ، والعلائق » (١) .

فهل كان الغزالى قبل خلوته ، مستوفياً هذه الشروط ؟

أما الجاه : فهو يرى « أن نيته فى التدريس غير خالصة لوجه

---

(١) (منقذ ص ٦٢) .

الله ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت »[1] .

أما المال : فهو يعمل على تحصيله ، حين ينقده من السلطان جزاء على تدريسه ، ونشره العلم بنظامية بغداد .

أما الشواغل والعلائق : فهو غارق فيها « لأنه مَمْنُوّ ، ومبتلى بتدريس العلوم الشرعية ، والإفادة لثلاثمائة من الطلبة ببغداد ، والتصنيف فيها وقت فراغه .

وزيادة على ذلك ؛ فهو يختلس الفينة بعد الفينة ، ليدرس الفلسفة ، ويجلس إلى كتب المتفلسفين »[2] .

٤٦ — العلوم الشرعية غير مهمة وغير نافعة

نعم . يعلن الغزالى : أن العلوم الشرعية ، غير مهمة ، وغير نافعة ، لأن الصوفية ؛ أكدت له : أنها لا توصل إلى جنات الله ، ولا تدخل ناشريها فى زمرة المقربين .

نعم . هذا ما ذكره الغزالى ، بينما نسى قول أستاذه البسطامى — الذى ردد اسمه فى كثير من صفحات الإحياء ، وفى المنقذ نفسه ، والذى حكى أنه تلقى عنه الصوفية التى يتحدث باسمها — : « لو نظرتم إلى رجل أُعطىَ من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا ؛ كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود ، وأداء الشريعة ؟ » .

٤٧ — نية الغزالى من جميع أعماله كسب الشهرة والصيت

ويعلن الغزالى أيضاً :

أن جميع العلوم التى يدرسها ، ليست بنافعة فى طريق الآخرة ،

(١) ( منقذ ص ٦٣ ) . (٢) ( منقذ ص ٢٢ ) .

« لأن نية تدريسه لها غير خالصة لوجه الله »[1] ، وغير مراد بها نفع الناس ، بل باعث عمله هو « كسب الجاه والصيت »[1] وما دامت النية الحسنة مفقودة ، فالعمل غير نافع ، بل كأنه غير موجود .

لأن الأعمال بالنيات ، ولأن لكل امرئ ما نوى .

هذا إن لم يزد صاحب العمل إثماً وحرجا ؛ بسبب عدم خلوص نيته ، وصفاء سريرته .

أظن بعد هذا ؛ يمكننا أن نعلن بكل تأكيد ما لمحنا إليه سابقاً ؛ من :

أن الغزالى كان إلى هذا الوقت — وقت أن وصلت سنه ثمانياً وثلاثين سنة — وبعد أن انتهى إلى الأستاذية بالنظامية ، وبعد أن كتب فى الشريعة ، وفى الأصول ، وفى الفلسفة ، وفى التعليمية .

أريد أن أقول إن جميع أعماله ، وحركاته ، وسكناته ، ونواياه ، إلى هـذا الوقت ؛ كان الدافع لها طلب الجاه ، وكسب الشهرة ، واستلاب الصيت .

أنا لا أقول هذا جزافا ، إنما استنبطته من أعماله وتاريخ حياته ، وهأنذا أؤيد ما قلت — ولو أنه فى غير احتياج إلى تأييد — عما قال ، وصرح ، وأعلن على رءوس الأشهاد :

« ثم لاحظت نيتى فى التدريس فوجدتها غير خالصة لوجه الله ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت » .

(١) (منقذ ص ٦٣) .

نعم . إنى أصدق كلامه ، وأستمسك بتصريحه ، إذا ما أيّدته الظروف المحيطة به ، وقطعت أعماله بأنه الصدق والحق ، وأنظر فيه من جديد ، وأقلبه على وجوهه ، إذا اختلف مع أعماله ، أو تناقض مع أقوال أخرى ، أو تضارب مع المنطق الصحيح .

أفعل ذلك لأستاب الحق الصريح ، والواقع الذى لا ريب فيه ، فأعتصم باليقين ، وألوذ بالصواب .

٤٨ — الغزالى ينتابه تفكير عميق ، فيقدم رجلا ، ويؤخر أخرى

بعد أن يصل الغزالى إلى ما تقدم : ينتابه تفكير عميق ، يفكر باختيار لا عن اضطرار ، يقلب الأمر على جميع وجوهه ، فبعد أن تأكد تأكداً لا ريب فيه ، أن طريق الصوفية ، من شرطه الخلوة والعزلة ، والإعراض عن الجاه والمال ، والبعد عن الوطن ، والأهل ، والصحاب ، وأن القيام بذلك أمر محتم ، وضربة لازب .

يرى أنه لا بد من تنفيذ ما تقدم ، فليخرج من بغداد ، مدينة السلام ، وعاصمة الإمام .

نعم ؛ الرحيلَ الرحيلَ ، والبدارَ البدار ، فلم يبق من العمر إلا القليل ، وكل ما هو فيه من العمل والعلم ؛ رياء وتخييل ، فلا مقصوده من الشهرة والصيت[1] قد وصل إليه ، ولا مطلوبه من الآخرة — كما يقول هو — قد استحوذ عليه .

إذاً ؛ الهرب الهرب ، الفرار الفرار .

---

(١) لأنه كما سنرى فيما بعد ، يجرى وراء شهرة أوسع ، ولو أنه لم يصرح هنا بذلك

ولكن النفس — نفسه — والعقل — عقله الباطن — يهمس له[1].

إن هذه الخلوة، حال عارضة، وسريعة الزوال، فأطع هذا الهاتف، واترك بغداد، واعتزل الناس، مدة من الزمان، حتى تؤدى المراسيم، وتنفذ الشروط، وستعود ثانية إلى ما أنت فيه، مزيداً عليه ما حصلته وكسبته:

سياحة فى الأرض، وتآليف خالدة، وأخيراً: بطل الظاهر والباطن، ووتد الأوتاد، وقطب الغوث.

ولكن يرد عقله الواعى على عقله الباطن قائلا:

« ولكن لو أذعنت، وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم، الخالى عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلم الصافى عن منازعة الخصوم، ربما ألفت نفسك هذا الترك، ولا تتيسر لك معاودة التعليم والدرس »[2].

فأنت الآن أستاذ بالنظامية، وبطل المتكلمين، وهادم الفلسفة، ومسفه الباطنيين، لديك مال وجاه، وعندك سلطان يحميك من منازعة الخصوم، فإذا ما تركت هذه الحياة، ورحلت إلى حياة جديدة، ربما تألفها نفسك، وتطمئن إليها، وربما لا تتيسر لك أيضاً العودة إلى حياة التدريس، الذى جاهدت فى الحصول عليها ست سنوات كاملات ».

---

(١) « هذا الكلام مستنبط من الجواب الآتى المنصوص عليه بين قوسين ».
(٢) « منقذ ص ٦٤ ».

هذا نقاش سجله الغزالى فى المنقذ ، بين عقله الواعى ، وعقله الباطن ، أو بين نفسه الخيّرة وبين شيطانه — كما يقول هو — استنبط منه ما تريد ، وافهم من تضاعيفه ، ما يجب أن يُفهم .

لا . بل يجب أن نفهم ما يريده الغزالى حقيقة ، وما يجب أن يفهمه الناس عنه .

٥٠ — تفكيره لمدة ستة شهور

تركنا الغزالى بعد النقاش السابق ، وقد عزم على الهرب والفرار ، وذلك عنده ليس بمركب سهل ، إن لم يكن هو الصعب كله ، ولكن الهدف الذى يبغيه ، أعظم من أن يقف فى طريقه صعاب ، أو أن تكتنفه عقبات .

إذاً . لا بد من تذليلها .

فكيف يذللها ؟؟

ها هو ذا يأخذ فى التفكير ، طلباً للتذليل :

فيفكر ويفكر ، ويعاوده التفكير ، قريباً من ستة أشهر .

ومن أول هذه الشهور ، وهو لا يدرى أى طريق يسلك ؟ ولا فى أى سبيل يجب أن يسير ؟

الفكر استولى عليه ، فتبلبل عقله ! ولم يسترح باله ! ولم يعد بقادر على أن يدرس أكثر من درس واحد كل يوم ، إرضاء لتلاميذه و « تطييباً لقلوب المختلفين إليه »[١] .

زاد المرض ! فثقل لسانه ! وبطلت قوة هضمه ! وضعفت

---

(١) « منقذ ص ٦٤ » .

قواه ! وأخيراً ؛ صدر قرار الأطباء :

« أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى إلى المزاج ، فلا سبيل إلى العلاج ، إلا بأن يتروح السر ، عن الهم المُلِمّ »[1]

أمر نزل بالقلب !! ولا بد أن يتروح السر عن الهم الملم !!

نعم . القلب والروح ، حل بهما سر إلهى ، وأمر ربانى ، فليس لأطباء البدن فيهما علاج .

فمن المداوى إذاً ؟ ؟

ومن الطبيب ؟؟

٥١ — أمر الله وسر الله فطبيب الغزالى هو الله !

يعترف لنا الغزالى حينئذ قائلا :

إنى لما أحسست بعد ذلك عجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله التجاء المضطر ، ليعطينى الدواء ، وليدلنى على طريق الشفاء ، فهو طبيبى ، ولا طبيب لى سواه . وفعلا ؛ وصف الله الدواء . وأمر فزال الداء .

٥٢ — كيف عالج الغزالى العقبات التى وقفت فى طريقه ؟ « الجاه والمال والأهل و... عند الغزالى بعد خلوته »

« إذ سهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأهل ، والولد ، والأصحاب »[1] .

١ — أما التعلق بالأهل ، والمال ، والولد ، والأصحاب ... فها هو يصرح : بأن الله سهل عليه الإعراض عنها جميعا ، وسنرى مدى صحة هذا فيما بعد .

٢ — أما أن نفسه ، قد تألفُ الحالة الجديدة ، وما فيها من

(١) « منقذ ص ٦٥ » .

راحة وهدوء ، فلا يمكنه تركها ؛ فَلَا خوْف من ذلك :

لأنه وهو فى العزلة سيدرس ، وسيعْقد حلقات الوعظ والإرشاد ، فى كل مكان يحل به ، وسيؤلف ، وسيجادل خصومه ، ويذيع على أنصاره عن طريق التأليف أيضا ، كما قال الإتحاف ذلك .

ولهذا فستكون حياته المقبلة ، شبيهة بحياته الحالية .

٣ — أما عدم تيسر معاودته للمنصب ، من الناحية الروحية والعلمية ؛ فطبعا لا .

لأنه فيما بعد ؛ سيكون أقوى علما ، وأعظم شهرة ، وأكثر إحاطة ، بل سيصبح فريدا فى نوعه ، فذا فى بابه ، إذ سيجمع بين الحقيقة والشريعة ، بين علم الظاهر وعلم الباطن .

أما أنه ؛ لن تتيسر له المعاودة من الناحية المادية ، أى أنه لن يجد المنصب خاليا ، فلماذا لا يترك فيه أخاه ؟

وفعلا — كما قال الإتحاف أيضا — أناب عنه أخاه فى التدريس !!

٥٣ — كيف يبتعد عن الضلال ويقود أخاه إليه ؟

فإذا صح ما قاله الإتحاف ؛ فكيف ينيب عنه أخاه ، مع إيمانه بأن التدريس غير مهم ، وغير نافع فى طريق الآخرة ؟

وكيف يجيز أن ما يراه ضلالا ؛ يدعو الناس عليه ؛ بل يقود أخاه إليه ، فيورده مورد التهلكة « كما يعتقد الغزالى » .

نعم . قد يجيب الغزالى بأحد جوابين :

١ — إنى وضعته بدلا منى ، أيهاما للناس بأنى سأعود إلى عملى ، بعد قضاء أربى ، وهو الحج .

مع أنه يصرح بأنه « عزم على ألا يعاود بغداد أبدا »[1] .

ب — أو وضعته بدلا منى ، ليحفظ مكانى ، حتى عند رجوعى أجده خاليا .

وعلى كلا الحالين — إذا كانت هذه الأنابة صحيحة — فهى تتعارض مع تصريحه هنا من أن التدريس غير نافع وغير مهم .

لأنه كيف يؤمن بهذا ، ثم يقود أخاه إليه ؟

فأيهما إذاً : الحق والصدق ؟

فهل كان يؤمن : بأن التدريس للعلوم الشرعية نافع ومهم ، وهو حينئذ يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ؟ أو كان يؤمن بعكس ذلك حقا ؟

نعم ؛ ستلمس فيما بعد ؛ أدلة وأدلة تؤكد لك :

أن تصريحه بأن التدريس غير نافع ، وغير مهم ؛ غير مطابق لما فى نفسه ، وغير صادر من قلبه ، ولهذا فهو يترك أخاه مكانه ، حفظا للمنصب ، أو إيهاما للناس بتأكد عودته ، أو تقديمه للناس بدلاً منه ، أو ذلك كله معاً .

٥٤ — خوف الغزالى من الخليفة والصحاب

بعد ذلك يحدثنا الغزالى بأنه : بعد أن عزم على الهرب والفرار ، تظاهر بالخروج إلى مكة ، وهو يورّى فى نفسه سفر الشام ، خوفا من أن يطلع الخليفة ، وأصحابه الكثيرون ، على خروجه طلبا للمقام بأرض الشام .

---

(١) « منقذ ص ٦٥ » .

ولهذا تلطف بلطائف الحيل ، ليخرج من بغداد ، موهما الناس أنه سيرجع إليها ، بينما هو قد عزم على ألا يعاودها أبدا .

فإذا كان قد أقلع عن الرياء ، وعزم على التطهر بالخلوة والاعتزال ، فكيف يعلن للناس أنه ذاهب إلى مكة ، لحج بيت الله الحرام ؛ بينما هو يريد السفر إلى الشام ، والمقام بدمشق ؟

لماذا ، وهو قريب من نفحة الله ، وقوى بأمر الله ، حيث أصبح طبيبه ، ومنقذه ، يظهر غير ما يبطن ، ويقترف ما فر منه ، اقترافا عن عمد واختيار ؟؟ !!

لماذا يتحايل على الخروج من بغداد ، خوفا من الخليفة أن يمنعه ، ومن الأصحاب أن يقفوا فى طريقه ؟؟ !!

لماذا يخاف من الخليفة ؟ ألم يؤمن بأن ما أراده هو كله خير ، وواجب أن يتجه إليه ؟؟ !!

لم يخاف إيذاء الخليفة ومنعه له ، وهو المسترشد بتحمّل الرسل الإيذاء فى سبيل الحق ، ونشر الهدى !! ؟

مستشهداً بقول الله :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا » . وغير ذلك من الآيات[١] .

بعد هذا ألا يمكننا أن نقول — كما قلنا سابقاً فى إنابة أخيه عنه فى التدريس .

(١) « منقذ ص ٨٩ » .

إن الغزالى : إما أن يكون كلامه هنا غير مطابق للواقع ، فلم يتحايل ، ولم يظهر غير ما يبطن ، وهذا ما نشك فيه ونستبعده ، ولأن الوقائع المادية تدحضه .

وإما أن يكون قوله : إنه هرب من التدريس ؛ لأنه غير نافع ، وإن الله سهل على قلبه الإعراض عن الجاه و ... ... فالتجأ بكليته إلى الله ، غير مطابق للواقع ، وهذا ما نراه ونعتقده .

هذا ما كان من أثر للعزلة فى نفس الغزالى .

٥٥ — آراء أهل زمانه فى عزلته

أما الأثر الذى أحس به من يحيطون بالغزالى ، فها هو ذا يقص علينا فى منقذه ، ما رآه أهل زمانه فى عزلته ، فيخبرنا بأن أئمة أهل العراق ، قد تناولوه « الغزالى » بالتجريح ، سواء تناولوه فعلا ، أو اعتقد أنهم سيتناولونه ، لأنهم لايجيزون أن ينزل صاحب المنصب الأعلى فى الدين ، وهو كرسى النظامية ، من هذا المستوى العالى ، إلى هذا المستوى الأقل .

وهنا أيضاً يلعب العقل الباطن دوره .

فيحدثنا الغزالى قائلا : « إن العراقيين ، ظنوا أن ما أنا فيه هو المنصب[1] الأعلى فى الدين ، ولكن كان ذلك مبلغهم من العلم »[2] .

أما هو أى الغزالى ؛ فيعلم أن هناك منصباً أعلى من هذا ، هو منصب :

---

(١) « ولأمر ما ؛ استعمل لفظة منصب » .
(٢) « منقذ ص ٦٥ » .

قائد حركة كلها خير ورشد [1].

« رسول الله على رأس المائة لإحياء دينه » [2].

٥٦ — تحقيق وتصحيح لا بد منه

يقول الغزالى بعد ذلك

« هذا هو حديث أئمة أهل العراق ، أما حديث العامة :

فمن بعد منهم عن العراق ظن أن ذلك لخلاف بينى وبين الولاة » [3].

« أما من قرب من الولاة : فكان يشاهد إلحاحهم فى التعلق بى ، والانكباب علىّ ، وإعراضى عنهم ، وعن الالتفات إلى قولهم » [3].

ولكن هل هذا صحيح ؟

فهل هو معرض عن الخلفاء ، وغير ملتفت إلى قولهم ، وسميع لأمرهم ، وخادم لأشخاصهم ، ومطيع لمجرد إشاراتهم ؟

أظن يكفى لتعرف مدى صحة هذا ، أن أكرر ما قاله سابقاً فى مقدمته لفضائح الباطنية :

« ولا زلت مدة مقامى بمدينة السلام ، متشوفا إلى أن أخدم المواقف القدسية ، فأقيم به رسم الخدمة ، فأجتنى بما أتعاطاه من الكلفة ، ثمار القربة والزلفى » .

« حتى خرجت الأوامر الشريفة ، المقدسة المستظهرية ، بالإشارة إلى الخادم بتصنيف كتاب فى الرد على الباطنية » .

---

(١) « منقذ ص ٨٩ » . (٢) « منقذ ص ٨٩ » . (٣) «منقذ ص ٦٦» .

« فرأيت الامتثال حتما ، والمسارعة إلى الارتسام حزما » .

أظن يكفى فى الرد عليه كلامه هذا !

٥٧ـ تركه التدريس واعتزاله الناس أمر سماوى

إن ما سبق هو رأى من قرب من الولاة ، وقد رأوا الغزالى ، ورأوا الولاة عن كثب ، أما من بعد عن الغزالى وعن الولاة ، ويرى ما تقدم فيقول :

« هذا أمر سماوى ، وليس له سبب ، إلا أنه عين أصابت الإسلام ، وزمرة العلم[1] » .

وهنا يلعب العقل الباطن دورا هاما ، فيحكى لنا ما يريد الغزالى أن يُنْشَرَ عنه بين الناس ، وأن يُعْلَنَ للملأ أجمع ، ولو على لسان العامة حينما يقول :

« إنه ما اعتزل إلا لأمر سماوى نزل عليه ، فلا حيلة له فيه ولا اختيار » .

إذاً : هو أصبح على ثقة بربه ، يأتمر بأمره ، ويقول للناس ما يريده الله ، ولا يفعل إلا ما يأمره به الله .

إذاً هو شخص ليس ككل الناس بالنسبة إلى الله ، فهو مقرب إليه ؛ فأضحى من خاصته الذين يأمرهم ويحركهم ، والذين هم موطن لأمره وسره :

٥٨ــ هل صحيح أن الله سهل على قلبه الإعراض عن المال والولد ؟

بعد هذا نريد أن نعرف : هل صحيح أن الله سهل على قلبه الإعراض عن المال والولد ؟ . . . سنرى ! !

(١) « منقذ ص ٦٦ » .

أما المال فقد فرق ما كان معه ، ولكنه ادخر قدر الكفاف ، وقوت الأطفال ، ترخصا بأن مال العراق وقف على مصالح المسلمين .

فلا يوجد مال أصلح منه للانفاق على العيال[1] .

ولكن هل معنى الأعراض عن المال عند الصوفى ، هو أن يدخر جزءا منه لقوت الأطفال ، حتى ولو كفافا ؟؟!!

أدع الغزالى يجيب على هذا فى إحيائه ، شارحا الفكرة الصوفية ، عند الكلام على توكل المعيل فى الجزء الرابع ، إذ قال :

« والتحقيق أنه لا فرق بين توكل المعيل وبين عياله ، فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مرة ، وعلى الاعتداد بالموت ، والصبر على الجوع رزقا وغنيمة ، فله أن يتوكل فى حقهم .

فإن كان لا يطيق ذلك ، ويضطرب عليه قلبه ، وتتشوش عليه عبادته ، لم يجز له التوكل .

ولذلك :

روى أن أبا تراب النخشبي ؛ نظر إلى صوفى مَدّ يده إلى قشر بطيخ ، ليأكله بعد ثلاثة أيام ، فقال له : « لا يصلح لك التصوف ، إلزم السوق »[2] .

إذاً : هو عندما ادخر المال كفافا لعياله ، لم يعرض عنه ، أى أن الله لم يسهل على قلبه الإعراض عن الأولاد ، كما لم يسهل على نفسه

---

(١) « منقذ ص ٦٦ » . (٢) « أحياء ص ٣٤ » .

الإعراض عن المال ، الذى يبقى عليهم ، فلا يستقبلون الموت رزقا وغنيمة .

بعد هذا التدليل والاستشهاد ، هل قول الغزالى :

إن الله سهل على قلبه الأعراض عن المال والولد صحيح ومطابق للواقع ؟

أو افترض — كعادته — أن الله سهل عليه ذلك ؟

ولكن : لماذا فرض الغزالى هذا الفرض ؟؟

نعم ؛ لأنه لابد من هذا الفرض ، حتى يقوم بالمراسيم الصوفية ، « ولو افتراضا » ويؤدى الشرائط المقررة ، فيجوز الامتحان ، ويصبح صوفيا . أو على الأقل ؛ حتى يفهم عنه الناس ، والصوفيون ، أنه سار فى الطريق الذى رسموه ، ونفّذ الشروط التى حتموها .

٥٩ — الغزالى يشرح الخلوة والعزلة الصوفية الصحيحة .

بعد ذلك يأخذ الغزالى فى شرح العزلة والخلوة الصوفية الصحيحة قائلا :

« إن أول الشروط التى يجب أن يسير عليها البادىء فى هذا الطريق هى :

**أولا** : « تطهير القلب بالكلية عما سوى الله » ، وهذا أول شروطها .

**ثانيا** : « استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وهذا مفتاحها ، الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة .

ثالثا : « الفناء بالكلية فى الله » وهذا آخرها[1] .

ويقول فى إحيائه[2] شارحا هذه العزلة وتلك الخلوة .

« إن ذلك يكون بانقطاع علائق الدنيا بالكلية ، وتفريغ القلب منها ، وبقطع الهمة عن الأهل ، والمال ، والولد ، والوطن ، وعن العلم والولاية والجاه ، بل يصير الشخص فى حالة يستوى فيها وجود كل شىء وعدمه ، ثم يخلو بنفسه فى زاوية ، مع الاقتصار على الفرائض والرواتب ، ويجلس فارغ القلب ، مجتمع الهم ، لا يشغل فكره بقراءة قرآن ، أو تأمل فى تفسير ، أو كتابة حديث ، أو نحو ذلك ، بل يجتهد ألا يخطر بباله شىء ، سوى الله تعالى ، فلا يزال بعد جلوسه فى الخلوة ، قائلا بلسانه : الله .. الله .. الله .. على الدوام ، مع حضور القلب ، حتى ينتهى إلى حالة يترك تحريك لسانه ، ويرى كأن الكلمة جارية على لسانه ، إلى أن تمحى من القلب صورة اللفظ ، وحروفه وهيئته ، ويبقى معناها مجردا فى قلبه ، حاضرا فيه لازما له ، لا يفارقه !!

٦٠ — هل عزلة الغزالى صوفية حقا ؟

فهل بعد هذا الشرح للعزلة الصوفية الحقة ، التى حكاها الغزالى فى المنقذ ، وفى الإحياء كما تقدم ، كانت عزلة الغزالى إذاً ؛ مستجمعة لهذه الشرائط ، وتلك الأوصاف ؟؟

يترك الغزالى بغداد ، ومعه عياله ، فيدخل الشام ، ويقيم بها نحوا من سنتين ، ويقول : إنه ما كان له شغل إلا العزلة والرياضة

(١) « منقذ ص ٦٨ » . (٢) « ج ٣ ص ١٧ » .

والمجاهدة، تزكية للنفس، وتهذيبا للأخلاق، وتصفية للقلب[1].

ولكن هل اعتزل لأنه أحس هذا بقلبه؟ وشعر ذلك بروح من عنده؟

أو اعتزل لأن هذه العزلة ضرورية، كما كان حصله من علم الصوفية؟ كما يقول هو نفسه فى المنقذ[2].

٦١ — بين منارة دمشق وصخرة بيت المقدس

نعم: إننا نراه؛ يصعد منارة دمشق طول النهار، ويغلق بابها على نفسه.

نراه؛ يدخل صخرة بيت المقدس كل يوم، ويغلق بابها على نفسه أيضا[3].

ونراه أيضا؛ يعقد حلقات الوعظ — كما يقول الإتحاف — ويحدث بلسان الصوفية، ويكتب الإحياء.

ونرى داعية الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة، تتحرك فيه، فيسير إلى الحجاز[4].

ونرى الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن تجذبه، فيُعاوده، تحت ضغط هذا الجذب، وتلك الدعوة[5].

ونرى؛ أن حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغيّر فيه وجه المراد، وتشوش عليه صفو الخلوة[6].

ونرى أنه ما كان يصفو له الحال، إلا فى أوقات متفرقة[7].

---

(١) «منقذ ص ٦٦». (٢) «منقذ ص ٦٦». (٣) «منقذ ص ٦٦».
(٤) «منقذ ص ٦٧». (٥) «منقذ ص ٦٧». (٦) «منقذ ص ٦٧».
(٧) «منقذ ص ٦٧».

ونرى أنه مع ذلك كله ، ما كان يقطع طمعه فيها ، « الخلوة » ولهذا فلا يلبث إلا أن يعود اليها ، ثم تدفعه العوائق عنها ، ولكنه يعود إليها ثانية [1] .

هذه خلوته ، وتلك عزلته ، التى دامت عشر سنوات أو تزيد !!

٦٣ — مقارنة بين خلوة الغزالى العلمية وخلوته العملية

نعم ؛ تلك خلوة الغزالى النظرية ، التى شرحها فى إحيائه ومنقذه ، وهذه خلوته العملية ، التى حكاها واعترف بها فى منقذه .

نعم ؛ سبق أن رأيت الشروط التى يجب توافرها فى خلوة الصوفى ، كما حدثنا بها الغزالى .

وها أنت قد رأيت مدى تنفيذ الغزالى لهذه الشروط ؛ كما حدثنا هو نفسه .

فهل كانت عزلة الغزالى العملية متفقة تماما مع خلوته العلمية ، فتصبح خلوة حقيقية إذاً ؛ أو هى مختلفة ومتناقضة ، فتصبح خلوة صورية ؟؟

نعم ؛ رأيت سابقا : أن إعراضه عن المال لم يكن موجوداً طيلة العزلة ، إذ أبقى معه قدر الكفاف وقوت الأطفال ، وما توكل فى حقهم ، فما جعلهم يستقبلون الموت رزقا وغنيمة !!

وكذلك ؛ إعراضه عن الأولاد ما كان موجوداً ، حيث صحبهم معه ، وحيث كان يسهر على راحتهم !!

ورأيت أيضا : أنه كان يكتب الإحياء . وأنه كان يعقد

---

(١) « منقذ ص ٦٧ » .

حلقات الوعظ !!

وأنه كان يعظ بلسان أهل الحقيقة والمتصوفة !! مع أن من شروط الخلوة الصحيحة، كما سبق أن قال هو نفسه : «الانقطاع التام، حتى عن قراءة القرآن، والتأمل فى التفسير والحديث، والكتابة ونحو ذلك».

ولنفرض؛ أن خلوة الغزالى بدمشق وبيت المقدس، كانت صوفية حقة.

فهل معنى ذلك؛ أنه يصبح متجها بكليته إلى الله، متفانيا فى حب الله، مستغرقا قلبه تماما بذكر الله حين الخلوة، وبعد الخلوة، كما قال هو، ويظل كذلك طول حياته، حتى يلقى ربه ؟!

أو بمجرد انتهاء الخلوة، يرجع فرداً عاديا ككل الأفراد، تتحرك فيه دواع، وتجذبه الهمم، ويحب الأولاد، والمال، ويحنّ إلى الوطن، ويعود إلى معترك الحياة، ومخالطة الصحاب، ويشعر بالخوف من السلطان ؟؟!!

نقول هذا، لأننا نراه كما تقدم، يحب المال والأولاد، ويحن إلى الوطن، ويخشى السلطان، حين الخلوة وبعدها.

٦٣ — لماذا يذكر الحج الآن ؟

ومن الغريب؛ أننا نراه؛ وقد تحركت فيه داعية فريضة الحج، وزيارة الرسول فى آخر عزلته.

وهنا ملاحظة نهمس بها.

لماذا يذكر الحج الآن، وهو طول حياته مستطيع إلى ذلك

سبيلا ؟؟ [1] .

لماذا يذكر الآن محمداً عليه السلام وقبره ، مع أنه لم ينس إبراهيم خليله ؟؟

لماذا يذكر الحج وهو فى أواخر عزلته ، وعندما تحركت فيه داعية الرجوع إلى بلده العراق ، فحسب ؟؟

نعم !! لأنه كما يقول .

جذبته الهمم ، ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاوده .

نعم ! هو يريد العودة إلى الوطن ، ولكنه خرج من بغداد ، تحت ستار الذهاب إلى مكة ، فكيف يعود إليها وهو لم يحج بعد ؟

إذاً : فلتشد الرحال إلى مكة . وليتجه نحو قبر الرسول ، ولو كان ذلك اضطراراً لا اختياراً .

٦٤ — إحساس الغزالى باعتراض الناس عليه

ومن صدق الصراحة ؛ أن يحس الغزالى باعتراض الناس عليه ، وكأنهم يقولون له :

أينت العزلة والخلوة ، وأين الفناء فى الله ؟؟ إذا كانت تعاودك هذه الرغبات ، بين كل حين وحين ، التى حكيتها واعترفتَ بها ، سيّما بعد رجوعك من الشام ؟

فيقول لهم :

لا تعترضوا ؛ فانى آثرت العزلة أيضا ، بعد رجوعى من الشام

---

(١) ويستدل على هذه الاستطاعة ، بأنه فرق ما كان زائداً عن حاجته من المال ، وأبقى ما يكفى الأولاد ، إذاً فهذا الزائد كان لازما عليه أن يحج به ، لأنه يجعله حينئذ مستطيعاً .

حرصاً على الخلوة ، وتصْفية للقلب بالذكر[1] .

نعم !!

لنفرض أننا آمنا بما كتبت ، وبما أجبت ، وبما طلبت منا أن نؤمن به .

ولكن خلوتك التي تتخللها هذه الرغبات ، وهذه الأعمال لا يمكن أن تكون خلوة صحيحة صوفية ، مستوفية الشروط ، مكتملة الأركان التي حكيتها أنت لنا .

وبعبارة أدق : هي غير موصلة إلى الله ، بل ولا تُدخل صاحبها في زمرة المقربين ، فضلا عن أنه لا يمكن أن يكون في عداد المتصوفين

وكأنى به يريد أن يؤكد رأينا هذا ؛ حين يعتذر عن ذلك بقوله :

إن حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، كانت تُغيِّر فيّ وجه المراد ، وتشوش عليّ صفو الخلوة[2] .

نعم !!

إن معنى هذا أن الغزالى ، يريد أن يقول لنا : إنه لم يختل خلوة صحيحة !! وعزلة صافية صادقة !!

يريد أن يقول لنا : إن الحال ما كان يصفو له ، إلا في أوقات متفرقة !!

وهل كان يقنع بهذه الخلوة ، وتكفيه فوَصلته إلى الله فعلا ؟؟

---

(١) « منقذ ص ٦٧ » . (٢) « منقذ ص ٦٧ » .

يقول :

« ولـكنى لم أقطع طمعى فيها ، إذ كلما دفعتنى العوائق عنها ، عدت إليها »

ومتى يقطع الغزالى الطمع فيها ، ويكتفى بها ، ولا يعود لطلبها ؟؟

إن هذا لجوابه عند ربى ! !

٦٥ — هـل أصبح الغزالى صوفيا حقا ؟

وأخيرا : وبعد كل ما تقدم أريد أن أسأل سؤالا صريحا ، وأرجو أن أوفق للإجابة عليه بصراحة أيضا ؛ وهو :

هل أصبح الغزالى بهذه العزلة صوفيا حقا ؟؟

يصرح الغزالى :

بأنه فى عزلتـه : كان حريصا على المال فاستبقاه ، وكان متعلقا بالأولاد فصحبهم ، وكان قائما بالدرس ، وعقـد حلقات الصوفية ، وبالتحدث بلسانهم ، ناشرا تقاليدهم ، مسجلا أبحاثهم ، شارحا آراءهم ، متوجا كل ذلك ، بكتابة إحيائه الخالد ! !

وكان مؤديا فريضة الحج ، زائرا قبر الرسول كما زار الخليـل عليه السلام ، وكانت تجذبه نفسه ، ودعوات أطفاله نحو الوطن .

وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش تملأ قلبه ، وتملك حواسه .

يخبرنا الغزالى بأن كل هذا :

كان يغيّر فيه وجه المراد ، ويشوش عليه صفو الخلوة ! !

* * *

نعم : بعد أن قدمنا بين يديك كل هذا ؛ أعتقد أنه من السهل الإجابة على السؤال السابق ، مع التفكير فى الإجابة على سؤال جديد وهو :

هل عزلةٌ كهذه يمكن أن يتخرج فيها صوفى ؟

وهل هذه عزلةٌ تتوفر فيها الشرائط التى رسمها الصوفيون ، كما شرح ذلك الغزالى نفسه ؟؟

نعم ؛ قد يمكن أن تسمى عزلة وخلوة ! !

نعم ؛ وقد يمكن أن تفترض أنها خلوة ، وعزلة كذلك .

ولكن : هل هذه العزلة الغزالية العملية ، تنطبق تماما على العزلة الغزالية النظرية ، التى حكاها وشرحها هو نفسه فى الإحياء ؟

ولكن : هل صاحب هذه العزلة الصورية ، ورجل تلك الخلوة الافتراضية ، يمكن أن يعتبر صوفى حقا ، أو يجب أن يعتبر صوفى صورة ، وافتراضا فحسب ؟؟ ! !

أعتقد أنه من السهل والواضح الإجابة على هذين السؤالين ، بعد الذى قدمنا . .

## د — ماذا بعد الخلوة والعزلة ؟

## هل الانخراط فى سلك الصوفية المرغوب فيه ؟

## أو الرجوع الى التعليم المرغوب عنه ؟

٦٦ — لماذا خرج الغزالى من عزلته؟

رجع الغزالى من الشام ، وظل بطوس مسقط رأسه ، مُفَضِّلاً الخلوة والاعتزال ، وفى آخر أيام عزلته التى دامت عشر سنوات أو تزيد ، أحس شيئا جديداً ، حدثنا به فى المنقذ قائلا إنه :

لمس « أن قد عم الداء ، ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ، وأحس فتور الخلق ، وضعف إيمانهم[1] » .

ورأى أيضا « من خاض منهم فى علم الفلسفة ، أو انتسب إلى الباطنية ، أو وُسم بالعلم بين الناس ، أو عرف شيئا من التصوف[2] » .

نعم رأى الغزالى :

أن جميع هؤلاء يوردون شُبَهاً ، وإن تهافتت أجزاؤها ، ويعرضون أسبابا ؛ وإن وهت حلقاتها ، تدعو إلى طرح الدين ، ومجانبة تعاليم الرسول الأمين .

ولمس أيضا : « أن نفسه مليئة بالرغبة المقتدرة ، لدحض الرأى

---

(١) « منقذ ص ٨٨ » .
(٢) « منقذ ص ٨٤ و ٨٥ » .

الخاطل ، والنظر غير المستقيم ، حتى أن فضح هؤلاء عنده أيسر من شربة ماء »[1].

فهو العالم بكل فن ، السابح فى كل نهر ، حيث خاض بحار الفلاسفة ، والباطنيين ، والمتكلمين ، والصوفية .

نعم ؛ أحس أيضاً : بأن فضح هؤلاء « ما دام قادرا على ذلك متعين عليه ومحتوم لديه »[2].

هذه هى الأسباب التى دفعت الغزالى للخروج من عزلته ، وها نحن سنتناولها بالنقد والتحليل :

٦٧ — مدى صدق إحساس الغزالى بأسباب عزلته

١ — نعم فقد عم الداء

أما أنه قد عم الداء وأشرف الخلق على الهلاك !!

فلماذا ؟

هل حدثت حادثة قوية تشعر بالفرق بين حال العامة الآن ، وبين حالهم قبلا ؟!

هل فتور دينهم ، وضعف إيمانهم ، الذى يرجع إلى خوضهم فى الفلسفة ، وتشبثهم بأوهامها ، وبالتصوف وتعلقهم بخشالاته ، وبالعلم وتمشدقهم بشبهاته ، وبالأمام ومعصوماته ، لم يكن موجودا قبلا ؟

هل حالهم الآن ليس كحالهم سابقا ، عندما ناضل الفلاسفة ، وخاصم التعليميين ، فبدد الأوهام والضلالات ، ودرس فى النظامية ، فأثبت رأى الشرع ، وقوى حجة الدين ؟!

---

(١) « منقذ ص ٨٧ »    (٢) « منقذ ص ٨٨ » .

هل حالهم الآن ليس كحالهم ، عندما تركهم مؤمنا أن التدريس غير نافع وغير مهم ، وأن العلوم التى يقوم بتدريسها غير مهمة وغير نافعة ؟

إى وربى !! إن الحال هو الحال ، والناس هم الناس ، والعلم هو العلم ، ومواد التعليم ببغداد ؛ هى عين مواد التعليم بنيسابور ، سيما أنه إذا عاد إلى نيسابور ؛ فسيجد لها منهجا محدودا ، ونظاما موضوعا ، لا يملك المدرسون تغييره ، ولا يقدر الأساتذة على تبديله ، فهى علوم شرعية ، وما يدور حولها من اللسانيات والكلاميات ، اللهم إلا بعض الحرية للأستاذ ، وقليلا من حسن التصرف .

هذا — أولا — حيث عم الداء .

ب — ومرض الأطباء

أما — ثانيا — فقد مرض الأطباء .

نعم ؛ الغزالى يريد أن يفهمنا : أن علماء العقول قد ضعفت ، وأطباء الأرواح قد مرضت .

ولكن أليس هو نفسُه واحداً من هؤلاء ؟!

فهل هو ضعيف ومريض ؟!

يجيبنا عن هذا السؤال قائلا : إنه طبيب قوى . الرغبة تملأه ، والمقدرة تتفجر منه ، وفضح هؤلاء الذين ينشرون الشبهات ، ويتعلقون بالأوهام ، أيسر عنده من شربة ماء .

نعم ؛ إنه يريد أن يفهمنا : أن هناك مريضا ؛ بل مرضى كثيرين ، وفى خطر ، ومشرفين على الهلاك !!

بل هناك وباء ، قد عم الناس أجمعين ! !

نعم ؛ وهناك أيضا أطباء ، ولكنهم مرضى ، وكيف يداوى المريض السليم ؟ !

ويريد أن يفهمنا أيضا : أن هناك طبيبا ، يعرف سر جميع الأمراض ؛ إذ زاولها وخبرها جميعا ، وهذا الطبيب ، قوى وقادر على أن يمنح الشفاء ، لكثرة خبرته ، وطول تجاربه ومرانه .

إذاً : من هم المشرفون على الهلاك ؟

هم الناس جميعا ! !

ومن هم الأطباء المرضى ؟

هم الموسومون بالعلم ، والفلاسفة ، وبعض الصوفية ! !

ومن هو الطبيب الراغب ، القوى القادر ؟

هو حجة الدين ، وإمام المسلمين ، أبو حامد الغزالى ! !

نعم ؛ هذا هو ما يريد أن يفهمنا إياه .

٦٨ — العقل الباطن يعلن ما خفى واستتر

إذاً : فالواجب على الغزالى ؛ أن يقوم من فوره ، ليمنح الناس طبه ، ولينتشلهم من الهلاك .

ولكنه يترخص ، ويظل معتزلا الناس ، لماذا ؟

١ — « لعجزه عن إظهار الحق بالحجة[1] » .

كيف هذا ، مع أنه قوى وقادر ؟ ! ففضحهم[2] — بالحجة

(١) « منقذ ص ٨٨ » . (٢) ترددت كلمة فضح كثيراً ، ولكن حرصت عليها لأنها لفظة الغزالى ، ولو أنه عبر عنها بالإفضاح .

طبعاً — عنده أيسر من شربة ماء[1] .

٢ — ولأنه يشعر بأنه « لن يمكنه أن يستقل بكشف هذه الغمة ، ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل[2] » .

إذاً : هو يشعر بضعفه ، وبعدم قدرته على الاستقلال بمجابهة هؤلاء الضالين .

اذاً : هو ليس بقادر على فضحهم ما دام غير قادر على مجابهتهم ومحاججتهم .

٣ — « ولأنه سيعادى أهل الزمان بأجمعهم ، إذا اشتغل بدعوة الخلق عن طريقهم إلى الحق ، ولن يمكنه أن يقاومهم ، فكيف يعايشهم ؟ »[3] .

إذاً : هو يخاف الناس ، ويخاف مقاومتهم ، ويعمل على عدم معاداتهم ، لأنه يعايشهم ، ولا بد أن يسالمهم .

وهنا يجب عليه أن يسكت على امتهان الدين ، ودَوْس حرمات الإسلام ! !

نعم : لأنه يريد أن يعيش ، ويعيش فى سلام ، وأمان واطمئنان ، أما اقتداؤه بالمرسلين ! وبالنبي ! وبالآيات القرآنية التى رددها بعد أسطر ! وفى نفس الصفحة ! مثل :

« ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ...

---

(١) « منقذ ص ٨٧ » . (٢) «منقذ ص ٨٨» . (٣) « منقذ ص٨٨ » .

وغير ذلك من الآيات » .

فلا يهم ، وليسكت الغزالى ، وليبق على عزلته ! !

٦٩ — مقدمات محكمة لتنتج ما يريد الغزالى

يخلص الغزالى بعد أن حاك ما تقدم إلى قوله :

« إنى أرى : أن ذلك لا يتم إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر[١] » .

نعم ؛ لأن هذه النتيجة التى انتهى إليها ، هى ما ستكون مقدمة ، ليرسل على أثرها نتيجة أخرى ، فيقول :

« ولكن ؛ قدر الله داعية سلطان الوقت من نفسه — لا بتحريك من خارج — فأمر أمْر إلزام بالنهوض إلى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الإلزام حدا كاد ينتهى — لو أصررت على الخلاف — إلى حد الوحشة »[٢] .

٧٠ — العقل الباطن يعلن ما خفى مرة أخرى

ولكن : لماذا حرص الغزالى على أن يفهمنا أن ذلك ، كان بدافع من نفس السلطان ، لا بإشارة من خارج ؟

فهل سمع أن أحداً ممن يهمهم أمره ، أو ممن يخلصون له النصح ، ويصدقون له القول من بطانة الإمام ؛ أشار عليه بذلك بناء على تلميح من الغزالى ، فاضطر أن ينفى هذا ؟

قد يكون ! !

ولكن لماذا حرص أيضا على أن يفهمنا ، أن الإمام أمره أمْر إلزام ، لدرجة أنه لو لم يقبل أمره ، لحصلت القطيعة بينهما ؟

---

(١) « منقذ ص ٨٨ » .   (٢) « منقذ ص ٨٨ » .

لماذا قال هذا ؟!

هل كانت نفسه توسوس إليـه بالبقاء فى العزلة ، مع أنه تمنى قطعها ، ولم يمنعه إلا عدم وجود السلطان بجواره ، يسنده ويقويه ؟!

وأيضا قد يكون !!

٧١ — إغضاب الله والنـاس ، ولا إغضاب السلطان!

ولـكن : لماذا أغضب الغزالى الله هناك ، فلم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر ، بل يترخص فى الاعتزال ؟؟

ولـكن : لماذا يخاف عداوة الناس ، ومضايقتهم له فى معاشه ، ويترخص فى الاعتزال أيضا هناك ؟؟

بينما لا يترخص هنا فى الاعـتزال أيضا أمام أمر السلطان ، فلا يسمع قوله ، ولا يلبى دعوته !!

قد يمكن أن يعتذر عنه : بأن سبب الترخص قد كان بسبب خوفه على نفسه ؛ من أن يضايق فى معاشه ، وحرصه على صلته بالناس ، ولـكن : لما أتى السلطان فبدّل من ضعفه قوة ، وغيّر من خوفه جرأة ، وجب عليه العمل حينئذ .

نعم : هى معاذير ! قد يعتقد الغزالى أن حلقاتها محكمة ، ومقدماتها متسلسلة!!

٧٢ — العقل الباطن يعلن ما استتر مرة ثالثـة أو الغزالى يعظ نفسه

نعم : يرد الغزالى على هـذا ، وكأنه قد أحس باعتراض الناس عليه قائلا :

إن سبب الرخصة فى الاعتزال قد ضعف « أى لم يبطل » .

إذاً : فى إمكانه أن يستمر على العزلة .

هذا ما يريد أن يفهمنا إياه ، لأنه يريد أن يقول لنا كلاما بعد ذلك ، ولأنه يريد أن يجرد من نفسه غزاليا آخر يعظه قائلا له :

« لا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة ، الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ! !

ألم تسمع قول الله تعالى ؟

بسم الله الرحمن الرحيم ، الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا ، وليعلمن الكاذبين .

ألم تسمع قول الله لرسوله وهو أعز خلقه ؟

ولقد كذبت رسل من قبلك ، فصبروا على ما كذبوا ، وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين

ألم تسمع قول الله جل جلاله ؟

بسم الله الرحمن الرحيم ، يس والقرآن الحكيم ، إلى قوله إنما تنذر من اتبع الذكر »[1] .

ما هذا ؟؟!

ألم يحفظ الغزالى القرآن قبل أمر الإمام له ؟!

ألم يحفظ الآيات السابقة ؛ عند ما سكت عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، خوفا من عداوة الناس ، ومضايقتهم له

---

(١) « منقذ ص ٨٨ و ٨٩ » .

في معاشه ؟!

ألم يعرف ؛ أنه لا ينبغى له أن يكون الباعث على عزلته وسكونه ؛ الراحة والكسل ؟!

نعم : الغزالى يعرف كل ذلك ، وهو واعٍ لكل هذا ، عارف لما يقول ، متيقظ لما يكتب .

ولكنه اعتزل وابتعد ؛ فأراد أن يشرع العزلة والخلوة ، فيأتيك بالأدلة ، ويجمع لك البراهين ، ويحشد لك كل ما يستطيع ، تدليلا على صحة ما فعل .

ولكن السلطان يأمره بعدم العزلة ، وبالنهوض إلى نيسابور ، فأراد أن يشرع العمل ، والتدريس والنضال ، فيأتيك بالأدلة ، ويجمع لك البراهين ، ويحشد لديك كل ما يستطيع ، تدليلا على صحة ما سيفعل أيضا !!

نعم : يريد أن يجعلك توقن أن ما فعله كله حق ، وأن الحق هو كل ما سيفعل !!

فالحق لديه حق ، لا لأنه حق فى ذاته ، ولكن لأنه هو ما يريد !!

٧٣ — تشابه فى التفكير بين خروج الغزالى من بغداد وتركه التدريس ، وبين دخوله نيسابور وعودته إلى التدريس

وأيضا : توجد ملاحظة هامة ودقيقة على أسلوب الغزالى الفكرى عند ما خرج من بغداد ؛ وترك التدريس ، وعلى أسلوبه عند ما رجع إلى نيسابور ، وعاد إلى التدريس .

فإننا لو نظرنا إلى الماضى القريب ، ففحصنا أسلوب الغزالى

الفكرى والنفسى ، بل واللفظى ، لوجدناه واحداً ، عندما ترك بغداد ، نافضا يده من التدريس ، وعندما عاد إلى نيسابور ، مقبلا على الدرس والتعليم .

فهناك : فى بغداد ، يبدأ **بملاحظة** أحواله وأعماله ، فيجد أن نفسه على شفا جرف هار ، فيغرق فى **التفكير** للخروج من هذه الشكوك ، ويظل مدة من الزمان ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، وأخيراً يصح العزم « **فيلجأ إلى الله** الذى يسهل عليه الخروج من بغداد » .

فيترك التدريس جانحا إلى العزلة والفرار !!

وهنا : فى العزلة ، يبدأ **بملاحظة** نفسه ، وخلوته واعتزاله ، فيجد أن نفسه أيضا على شفا جرف هار ، فيغرق فى **التفكير** مدة من الزمان ، ليخرج من هذه الحيرة ، وتلك الشكوك ؛ فيقدم رجلا نحو الخروج من هذه العزلة ، ويؤخر أخرى ، فلا يتركها حتى يأمره الإمام ، وأخيراً « **يلجأ إلى الله** الذى ييسر عليه الحركة إلى نيسابور » وترك الخلوة ، والعودة إلى التدريس والنضال .

نعم ؛ هناك فى بغداد ، نرى أن أسلوبه التفكيرى ، وحيرته النفسية ، وما يدور بخلده من معان وحجج ، وما يتلجلج فى ضميره من شكوك وهواجس ، بل ما يلفظ به من أقوال ، وما يقوم به من أعمال .

نرى ذلك ؛ هو نفس الأسلوب الذى قام به هنا فى الخلوة ، ولو ضممنا هذا إلى ما سبق من نقدات ، لتحتم علينا أن نعتقد : أن الغزالى

كان فى كل ما يصدره ، إنما يرسله من عقلية واحدة ، وتفكير واحد ، ومنطق واحد ، ولغاية واحدة ، ويسير نحو هدف لم يتبدل .

اللهم : إلا تغاير ضئيل ، وتباين أضأل ، ومرجع ذلك فقط ، العمر الزمنى للغزالى ، والملابسات التى لابست عزلته وعودته ، ثم المدة التى فصلت بين الحركتين ؛ حركة الخروج من بغداد وترك التدريس ، وحركة الدخول إلى نيسابور ومعاودة التعليم ، حيث أنها تزيد على عشر سنين عدداً .

ولهذا التشابه الأكيد ، والتماثل الآكد بين الحركتين ، ألا يمكننا أن نقول ؟ :

إن الخلوة والعزلة ، لم تفد الغزالى شيئاً ما ؛ لا فى روحه وتفكيره ، ولا فى وسائله وغاياته ، ولا فى علمه ويقينه ، ولا فى شكه واطمئنانه .

أو بعبارة أدق : كانت خلوته وعزلته كما تقدم ، افتراضية فحسب .

نعم : هو ترك التدريس حقاً ، فر من بغداد بلا نزاع ، اعتزل بالشام حقيقة ، اختلى بصخرة بيت المقدس ، وأغلق على نفسه منارة دمشق بكل تأكيد .

ولكن : كان ذلك كله عملا مادياً محضاً ، لم يشع من روحه ، ولم ينبثق من قلبه ، ولم يُدفع إليه بوحى من ضميره ، وإلهام من نفسه .

ولهذا : فالدافع للحركة الأولى ، هو الدافع للحركة الثانية ، أو كما يقولون :

ما أشبه الليلة بالبارحة !

٧٤—براعة المقطع، أو حسن الختام، أو السبب المباشر لكتابة المنقذ

ولكن الغزالى يشعر بكل هذا ، فيريد أن يدلل على أن هذا الرجوع ، وتلك العودة ، لا يصح أن تنقد أو تجرّح .

هذا مع ملاحظة أن هذا التدليل ، هو السبب المباشر لتأريخ الغزالى نفسه ، ولكتابة « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » .

نعم ؛ شعر الغزالى بهذا النقد :

لأنه كان يدرس بنظامية بغداد ، وهى أرقى بكثير من نظامية نيسابور ، فهى عاصمة الملك ومقر الخلافة .

ولأن المواد التى تدرس بهذه ، هى التى كانت تدرس بتلك ، فالمناهج واحدة ، والروح واحدة ، ونظام الملك هو الذى أنشأ هذه المدارس ، وحدد وسائلها ، وأهدافها جميعا .

فلماذا ترك التدريس هناك ، وهو الآن يعود إليه هنا بعد عشر سنوات أو تزيد ؟

نعم : شعر الغزالى بكل ذلك ، وبأن الأدلة التى قدمها لك سابقاً غير كافية .

وشعر أيضا : بأنك قد تحس أنه رحل إلى نيسابور ، لأنه أرغم من الإمام على ذلك .

فأراد أن يُشرك غيره معه فى الرأى ، وأراد أن يدلك على أن الصالحين ومناماتهم ، والمتصوفين وقلوبهم ، والمسلمين وحاجتهم إليه ، كانت تبعث على هذا العمل ، وتدفع لذلك الخروج من العزلة ،

والعودة إلى التدريس . تحدثنا بأنه :

ا — شاور فى ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية[1] .

ب — وأخبرته كثرة متواترة من الصالحين ، أنها رأت فى المنام ، ما يشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد[2] .

حـ — وأن الله قدر تلك الحركة على رأس هذه المائة ، حيث قد وعد الله بإحياء دينه ، وذلك بإرسال مصلح على رأس كل مائة[3] .

فاستحكم لديه الرجاء ، وغلب عليه حسن الظن ، بسبب هذه الشهادات[4] .

٧٥ — العقل الباطن يظهر ما استتر مرة رابعة

وأخيراً ، ها أنت تلمس أن الغزالى ، كما حدثنا هو بذلك أصبح :

قائد حركة كلها خير ورشد[5] .

مصلح القرن[6] .

مبعوث الله لإحياء دينه[7] .

هذه معان ألصقها بنفسه ، وخلعها على شخصه ، ولو واتته على لسان الصالحين ، الذين رأوا فى مناماتهم ما يدل على ذلك .

لا أريد أن أفرض أن الغزالى لا يفهم قيمة الأحلام فى الإسلام ، إنما الذى لا شك فيه أن الغزالى يعرف جد المعرفة ، أن الإسلام دين المنطق السليم ، والعقل الحر ، لا دين الرؤيا والأحلام ،

---

(١) « منقذ ص ٨٩ » . (٢) « منقذ ص ٨٩ » . (٣) «منقذ ص ٨٩» .
(٤) « منقذ ص ٩٠ » . (٥) « منقذ ص ٨٩ » . (٦) «منقذ ص ٨٩» .
(٧) « منقذ ص ٨٩ » .

والمنامات والأوهام ، أو على الأقل ؛ كان يجب عليه أن يعرف هذا !!

٧٦ — باسم الله مجراها ومرساها

وأخيراً : وفى ذى القعدة سنة ٤٨٨ هـ ، تتحرك القافلة إلى الأمام .

فباسم الله مجراها ومرساها .

بسم الله مجراها من طوس ، وبسم الله مرساها إلى نيسابور

باسم الله مجراها من الخلوة والاعتزال ، وباسم الله مرساها إلى التدريس والنضال .

***

للحق وللتاريخ

إلى هنا : انتهى قلم الغزالى من تأريخه حياته ، ومن إرسال اعترافاته ، كما أراد هو .

وإلى هنا : ينتهى نقدنا ، وتوجيه تلك الاعترافات ، كما يريد المنطق ، والحق ، والتاريخ ، مؤمنين بصدق كل كلمة كتبناها ، مخلصين فى إرسال كل فكرة سجلناها ، متحملين كل المسئولية أمام الله ؛ وأمام التاريخ ؛ وأمام الغزالى نفسه ؛ عن كل نظرية أصدرناها ، معتقدين :

« أن الله أرانا الحق حقا ؛ ورزقنا اتباعه ، وأرانا الباطل باطلا ؛ ورزقنا اجتنابه[1] »

---

(١) « منقذ ص ٩١ » .

# الباب السابع

## اعتذارات

### أ — الاعتذار الأول ، وهو اعتذار غير مقبول .

١ — هل يمكن أن يقال : إن اعترافات الغزالى صادقة من الناحية النفسية ، ولكن طبيعته البشرية لم تمكنه من تحقيقها ؟

٢ — إحساس الغزالى بعجزه عن الوصول إلى ما يريد ، ونقد ذلك

٣ — إحساس الغزالى بوصوله إلى ما يريد فعلا ، ونقد هذه النظرية

٤ — وأخيراً استنباط هام

### ب — الاعتذار الثانى ، وهو اعتذار مقبول .

٥ — الغزالى حجة الإسلام ، ورجل الدين ، لدى علماء المسلمين

٦ — الغزالى فيلسوف الإسلام ، لدى المستشرقين

٧ — اعترافات الغزالى : قوة وإيمان

٨ — الغزالى أستاذ الفلاسفة الأوربيين فى العصور الوسطى

٩ — إذاً : ماذا بقى للإسلام من رجال إذا كان الغزالى كذلك ؟

١٠ — كيف نعتذر للغزالى ؟

١١ — الغزالى يجيز الكذب لسبب

١٢ — الصلة بين إباحة الغزالى الكذب ، وبين اعترافاته

١٣ — الغاية تبرر الوسيلة ، ما دام الضرر مفقودا ، والمقصود حسنا .

١٤ — سبب تقديم هذا الاعتذار ؟

١٥ — وماذا بقى إذاً : بعد هذا الاعتذار ؟

١٦ — وما قيمة المنقذ إذاً : بعد أن يبقى هذا الاعتذار للغزالى كرامته والثقة به

١٧ — أثر هذا البحث

(أ) المنقذ ليس بتاريخ حقيقي للغزالى

(ب) اعترافات الغزالى فى المنقذ هى مثالية

(ج) تاريخ الغزالى فى المنقذ هو قصة ، وأبو حامد بطلها

(د) على المستشرقين وتلامذتهم أن يراجعوا ما كتبوا ، فقد ينقضوا ما أبرموا

حـ — خصائص هذه الرسالة أو الجديد فى أسلوب ذلك البحث

١٨ — مقدمات ونتائج

١٩ — إغفالها الاستشهادات ، وبعدها عن الإطالة

٢٠ — عنف معانيها

٢١ — عنف ألفاظها

٢٢ — ضرورة لا بد منها

## ١ — الاعتذار الأول ، وهو اعتذار غير مقبول

لا نزاع فى أنه توجد اعترافات للغزالى فى المنقذ — كما رأيت — هى غير مطابقة للواقع ، والغزالى حينما اعترف بها كان متأكدا أن اعترافه هذا غير صحيح .

ولكن : هلا يمكن أن يعتذر له فى أهم اعترافاته ، وهو تركه التدريس ، ورجوعه إليه ، فيقال :

١ — اعترافات الغزالى صادقة من الناحية النفسية، ولكن طبيعته البشرية لم تمكنه من تحقيقها ! !

إن الغزالى عندما اعترف : بأن نيته من التدريس ، كسب الجاه والشهرة .

وعندما اعترف : بأن رغبته عند هربه من بغداد ؛ هى خلوته بالشام ، واعتزاله الأهل ، والمال ، والوطن .

أقول : عندما اعترف بذلك ؛ كانت فى الواقع هذه النية ، وتلك الرغبة ، عن صدق فى إحساسه ، وإخلاص فى ضميره ، وبدافع من وحى شعوره ، وإلهام من قرارة نفسه . وكان فعلا ؛ يريد أن يسير السيرة الصوفية الحقة ، من زهد فى الدنيا ، وترك كل العلائق تركا تاما ، والانخلاع من مشاغل هذه الحياة ، انخلاعا كاملا أكيدا .

أقول : عندما اعترف ؛ كان يريد فعلا كل ذلك ، ولكن

ما الغزالى إلا بشر ، بين جنبيه نفس — والنفس دائما أمارة بالسوء — وبين ضلوعه قلب ، يحن إلى الولد ، والأهل ، والمال ، والأصحاب ، والوطن ، فلم يمكنه أن ينخلع من بشريته ، كما لم يمكنه أن يعرض عن الدنيا بكليته ، ويتجه الى الله ، بل ويفنى فيه .

فرجع إلى ما كان ، وعاد إلى ما عزم على تركه رغما عنه ، سيما أنه كما صرح : كانت نيته من التدريس ببغداد ، كسب الجاه والشهرة ، أما نيته من الدرس بنيسابور ، فهى الدعوة إلى العمل الذى به يترك الجاه والصيت ، هذه نيته أولا ، وتلك نيته ثانيا ، ولكل امرىء ما نوى .

نعم : يمكن أن يقال هذا ، ويعتذر عنه بذلك .

ولكن : هل هذا العذر مقبول ؟؟

سنرى :

هل عرف الغزالى أنه لم يمكنه أن يصل إلى غاية الشوط الذى أراده ، وأحس أنه عجز عن أن ينتهى إلى تلك الحالة التى ابتغاها ، والتى عمل لأجلها ؟

هل شعر الغزالى بذلك العجز وأحسه وعرفه ؟

أو لم يشعر بأنه عجز عن الوصول إلى ما أراد ، بل تأكد أنه قد وصل إلى ما طلب ، وانتهى إلى ما ابتغى ، مع إيمانه بذلك ، وتحققه من هذا ؟

نعم : لا نزاع فى أنه : إما أن يكون هذا ، أو ذاك .

فإذا كانت الحالة الأولى هى التى لابسته ، أى أنه أحس عجزه عن الوصول إلى ما يريد رغما عنه ، فلماذا لم يصرح لنا بهذا ، سيما أنه قد عودنا ذلك قبلا ، عند ما ترك التدريس ببغداد ، معلنا ضلاله ورياءه ، واعوجاج طريقه ؟!

٢ — إحساس الغزالى بعجزه عن الوصول إلى ما يريد ، ونقد ذلك

لماذا لم يعلنه ، ويعترف به ، سيما أنه الآن يفضى لنا بدخائل نفسه فى المنقذ ، وهو يعلم أن الاعتراف مطهرة ، وتوبة نصوح ، ومن مظاهر القوة والإيمان ! !

بل لماذا صرح قائلا : « إنه وصل ورأى أموراً ، لا يمكن إحصاؤها ، ولا استقصاؤها » مما يدل على أنه انخرط فى سلك المتصوفين ، وانغمر فى بحر الواصلين .

لكل هذا ، نضطر إلى أن نقول : إن الغزالى لم يحس هذا العجز ، ولم يلمس ذلك الإخفاق .

٣ — إحساس الغزالى وصوله إلى ما يريد ، ونقد هذه النظرية

أما وقد بقيت الحالة الثانية ، وهى أن الغزالى لم يشعر بذلك العجز ، ولا بهذا الإخفاق ، بل أحس أنه وصل إلى ما يريد ، وتأكد أنه انتهى إلى ما يطلب ، فما علينا إلا أن نتناول تلك الحالة بالدرس والتحليل .

نعم إن تصريحات الغزالى واعترافاته ، تؤكد لنا خطل ذلك الزعم ، وضلال هذا الرأى .

١ — إذ نراه : عندما تصدق نيته ، وتصح عزيمته على الخروج من بغداد ، والهرب من الرياء ، يقع فى الرياء عن عمد وقصد ، حينما

يتظاهر بالخروج إلى الحج ، وهو يبطن فى نفسه السفر الى الشام ؟

ولو كان مقتنعا بأن التدريس رياء وتخييل ، ما كان يمكنه أن يترك الرياء ليقع فى الرياء والتحايل عمداً واختياراً .

٢ — ونراه : عندما يعزم على ترك الجاه ، وحياة التدريس ، يخاف عن تنبه وتيقظ ، أن تألف نفسه الحياة الجديدة ؛ حياة الهدوء والراحة ، فلا تتيسر له معاودة الدرس والتعليم .

٣ — ونراه : عند ما يترك التدريس ، لأنه تضليل وغير نافع وغير مهم ، ينيب عنه أخاه .

٤ — ونراه : عندما تعترض عليه أئمة بغداد ، بأنه كيف يترك أعلى منصب فى الدين ، يقول لهم : إنك ذلك مبلغكم من العلم ، فهناك : منصب أعلى وأعلى ، هناك مناصب وألقاب . هناك مصلح القرن ، ومجدد المائة ، ومبعوث الله .

٥ — ونراه : عندما يقول : إن شرط الخلوة ، الإعراض عن المال ، والولد ، والوطن ، وعدم الاشتغال بأى شىء ؛ حتى قراءة القرآن ؛ يصرح فى نفس الصفحة ، بأنه أحب المال فاستبقاه ، والأولاد فصحبهم ، والوطن نحن إليه ، والتأليف فكتب إحياءه ، والدرس فعقد حلقات الوعظ والإرشاد .

٦ — ونراه : يعلم جد العلم « أن كل هذه العلائق كانت تغيّر فيه وجه المراد ؛ وتشوش عليه صفو الخلوة » كما يقول هو نفسه . أى أنه ؛ لم يمكنه أن يصل إلى ما يريد فعلا ، وصولا كاملا أكيداً .

٧ — ونرى : « كما يصرح » أنه يعمل كل هذا : من هرب ، وخلوة ، واعتزال ، ليسير على النهج الصوفى ، « كما كان حصله تماما من علومهم » كما قال هو نفسه ، لا كما أحس ذلك بدافع من نفسه .

٨ — ونراه : يعرف أنه ترخص فى إغضاب الله ، فلم يأمر بالمعروف ، ولم ينه عن المنكر .

٩ — ونراه : يعرف أنه لم ينافح عن الإسلام — مع أنه صرح بأن ذلك متعين عليه ، ومحتوم لديه ، حيث لا طبيب سواه — لأنه يريد أن يعيش فى هدوء ، وسلام واطمئنان ، بدلا من معاداة الناس ومقاومتهم .

١٠ — ونراه : يعرف أيضا ، أنه قام إلى الأمر بالمعروف ، والمنافحة عن الإسلام ، وإلى التدريس بنيسابور ، لأن السلطان أمره أمر إلزام وتحتيم .

١١ — وأخيراً : نرى الغزالى يكتب ؛ وهو يفهم ما يكتب ، ويعترف ، وهو عارف بدقائق اعترافاته ، ويقول ؛ وهو متيقظ لكلماته ، ويكتب بالعربية ، وبأسلوب جزل اللفظ مستقيم المعنى ، فلا يمكن أن يقال : إن اللفظ قد خانه ، أو أن التعبير قد جره إلى ما لا يريد ، أو أنه يحمِّل ألفاظه ما لا تحتمل وتطيق .

٤ — استنباط هام

لكل هذا ؛ فنحن نعتقد بسبب هذه النقاط :

أن الغزالى يعرف : أنه لم يصل إلى ما يريد .

وأنه يؤمن : بأن كل ما فعله كان غير موصل له .

ويؤمن بأنه : لم يحس هذا الوصول .

ويؤمن بأنه : غير صادق فى هذه الاعترافات المرتجلة المخترعة .

كما نعتقد نحن بأنه اضطر إليها ، فساقها متناقضة متهافتة .

وبأنه أراد الدفاع عن قضية ، أركانها منهارة متداعية ، ففرض صلابة هذه الأركان ، ثم فرض صحة هذه القضية ، ومن ثمّ : أعلن للناس هذا الفرض ، وطلب منهم تصديقه ، والإيمان به .

بعد هذا : أرانى مضطراً لأن أقول :

إن هذه الاعترافات :

ا — ليست باعترافات رجل ؛ أراد هدفاً ؛ ولكنه أحس العجز عن الوصول إليه ، فأعلن للناس هذا العجز ، وأبان لهم ما اكتنفه من عقبات .

ب — وليست باعترافات رجل ؛ أراد هدفاً ؛ واعتقد أنه وصل إليه ، بينما لم يصل فعلا .

حـ — ولكنها : اعترافات رجل ؛ أراد هدفاً ، ولم يصل إليه ، وعرف أنه لم يصل إليه فعلا .

ومع هذا : فقد أراد أن يحمل الناس على التصديق بأنه وصل ، فساق الأدلة ، وأرسل الاعترافات ، من هنا ، ومن هناك ، متهافتة متخاذلة ، متناقضة متعارضة ، لا تنتج نتيجة ، ولا تُنهض حجة ، ولا تصحح قضية .

### ب — الاعتذار الثانى : وهو اعتذار مقبول

ولكن : هلا يمكن بالبحث والتنقيب ، والفرض والتأويل ، أن نعثر على عذر نعتذر به للغزالى ؟

٥ — الغزالى حجة الإسلام، ورجل الدين ، لدى علماء المسلمين

فالغزالى : حجة الإسلام ، وإمام المسلمين ، ومؤلف الشريعة ، وكاتب الإحياء ، وعالم الأصول ، وعماد المتكلمين ، وهادم الفلسفة ، ومسفه الباطنيين ، وزعيم المتصوفين .

والغزالى : رجل الشريعة والحقيقة ، عالم الظاهر والباطن ، هو بين العامة محترم ، وبين الخاصة مبجل ، تآليفه فى كل منزل ، وعظاته وأوراده فى كل بيت ، يلهج بها لسان كل مسلم ، فهو مقدس من مسلمى الكرة الأرضية بلا منازع .

٦ — الغزالى فيلسوف الإسلام ؛ لدى المستشرقين

هذا فى العالم الإسلامى ؛ أما فى العالم الأوربى ، أو بعبارة أدق ؛ عالم المستشرقين ، فهو فيلسوف الإسلام الوحيد ، وهو رجل الفكر الحر ؛ فى ظلمات العصور الوسطى ، وهو بطل الحرية الدينية أيضاً ، وهو الرابع فى الإسلام ، بعد محمد عليه السلام ، وبعد البخارى والأشعرى ، كما قال زويمر « على ما أذكر » .

ومن الغريب أن هذا الكتاب ؛ كتاب الغزالى « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » الذى أرسل فيه

اعترافاته ، والذى به أرخ حياته ، والذى فيه كشف للناس عن دخائل نفسه ، هذا الكتاب هو الذى رفعه إلى مصاف كثير من الفلاسفة الغربيين ، « أمثال سان جوستين ، وسان توماّزو ، وبسكال ، وديكارت » حينما أذاعوا مذكراتهم واعترافاتهم ، مثبتين فيها تاريخ حياتهم ، سافرين بين سطورها عن النفس الإنسانية ، مرسلة على طبيعتها ، لم يحجبها رياء ، أو دجل ، ولم يسترها نفاق ، أو تضليل .

٧ — اعتراف الغزالى : قوة وإيمان

والغزالى أيضاً : هو الذى كتب فيه الكتاب ، والذى ارتفع على أكتاف دراسته ، كثير من البحاث ، والعلماء من القرون الوسطى إلى الآن ، وكلهم محترم له ، مبجل لآرائه ، مكبرٌ لأفكاره .

وإذا كان هناك أى نقد وجه إليه ؛ فما وجه أبداً ؛ لكتابه المنقذ ، وما يحوى من اعترافات وآراء ، لأن المستشرقين ، والبحاث من المسلمين ، ما تصوروا تاريخاً أثبت وآكد ، من تاريخ رجل فى سن الخمسين ، يكتبه بخط يده ، ويرسل لك اعترافاته ؛ تحوى ما يشين ويُنقص ؛ فتنزل به إلى الحضيض ، كما تحوى ما يرفع ويسمو ؛ فتصعد به إلى أعلى الدرجات .

وعلى كلا الحالين : فهو اعتراف ، والاعتراف دائماً وأبداً ، من دلائل القوة ، وعلائم الحرية الفكرية ، والإيمان العميق .

٨ — الغزالى أستاذ الفلاسفة الدينيين الأوربيين فى العصور الوسطى

والغزالى أيضاً : هو الذى تتلمذ عليه فطاحل الفلاسفة الدينيين ، الأوربيين فى العصور الوسطى ؛ أمثال سان توماّزو وأشباهه ،

فاتخذوا آراءه حجة ، دعموا بها دعائم الدين المسيحى كدين ، أمام هجمات الفلاسفة ، و نظريات المتفلسفين .

٩ — إذاً : ماذا بقى للإسلام من رجال إذا كان الغزالى كذلك ؟

وإذا كان الغزالى ؛ وهو عَلَمُ الإسلام الخفاق سيوصم بهذا : اعترافات غير صادقة ، وآراء غير مطابقة للواقع ، وهو حين يعترف ؛ يعلم ويتأكد ، أنه يقول ما لا يطابق الواقع ، وإنما يتحدث عما نبت فى أفكاره حين الكتابة من آراء ، ويعترف بما كان يجب أن يكون ، على أنه هو المثل الأعلى ، الذى يجب أن يحفظه له التاريخ .

إذا كان الغزالى وهو العَلَم ، وليس للمسلمين علم يساويه ، ينزل إلى هذا الدرك ، فماذا بقى للمسلمين بعد ذلك ؟؟ !!

١٠ — كيف نعتذر للغزالى

فهيا ! لنبحث عن عذر نعتذر به للغزالى .

وهيا ! لنعصر الفكر ، ونرهف الحس ، وندقق النظر ، مرة ؛ بل وألف مرة ، علنا نعثر على مايقيله من عثرته ، ويرفعه من كبوته ، ويدفع هذا التناقض وذلك التعارض ، ولو كان عذراً لا يرضى الحق الخالص ، ولا يطمئن المنطق السليم .

ولكنه على الأقل ؛ عذر يرضى كبرياءنا ، ويدمل جرحنا ، ويُبقى على أعظم رجالنا ، وقد يكون هو الحق والصواب .

نعم ؛ هيا بنا !!...

ومن آراء الغزالى و نظرياته ، نستمد العون والتوفيق .

١١ — الغزالى يجيز الكذب لسبب

يقول الغزالى فى الإحياء، تحت عنوان: «بيان ما رخص فيه من الكذب»[١].

«اعلم أن الكذب ليس حراما لعينه، بل لما فيه من الضرر على المخاطب، أو على غيره ... فإن أقل درجاته، أن يعتقد المُخبَرُ الشيء على خلاف ما هو عليه، فيكون جاهلا ... ورب جهل فيه منفعة ومصلحة، فالكذب المحصل لذلك الجهل، يكون مأذونا فيه، وربما كان واجبا.

قال ميمون بن مهران: «الكذب فى بعض المواطن، خير من الصدق» ...

«يقول الغزالى أيضا»:

«بعد هذا نقول:

الكلام وسيلة إلى المقاصد، فكل مقصود محمود، يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعا؛ فالكذب فيه حرام.

وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق، فالكذب فيه مباح؛ إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا، وواجب إن كان المقصود واجبا ......»

ودلل الغزالى، على أن الكذب يجوز فيه الاستثناء، فلا يكون حراما بقوله:

«والذى يدل على الاستثناء، ما روى عن أم كلثوم:

---

(١) «ص ١١٩ ج ٣ من الإحياء طبع ١٩٣٣ هـ بالقاهرة».

ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرخص فى شىء من الكذب ، إلا فى ثلاث :

الرجل يقول القول ؛ يريد به الإصلاح .

والرجل يقول فى الحرب .

والرجل يحدث امرأته ، والمرأة تحدث زوجها » .

يقول الغزالى أيضاً :

«فهذه الثلاث ؛ ورد بها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره .

ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب فى المكتب إلا بوعد ، أو وعيد ، أو تخويف كاذب ، كان ذلك مباحا .

نعم روينا فى الأخبار ، أن ذلك يكتب كذبا ، ولكن الكذب المباح أيضاً قد يكتب ، ويحاسب عليه الإنسان ، ويطالب بتصحيح قصده فيه ، ثم يعفى عنه ، لأنه أبيح بقصد الإصلاح ، وكل من أتى بكذبة ، فقد وقع فى خطر الاجتهاد ، فليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله ؛ هل هو أهم فى الشرع من الصدق ، أم لا ؟ »

نعم ؛ إن الغزالى استدرك قائلا بعدما تقدم : « وهذا غامض جدا ، والحزم تركه ، إلا أن يصير واجبا ، بحيث لا يجوز تركه ، كما لو أدى إلى سفك دم ، أو ارتكاب معصية كيف كان » .

***

١٢ — الصلة بين إباحة الغزالى الكذب، وبين اعترافاته

إلى هنا انتهى كلام الغزالى .

فهل هناك من صلة ، بين ما أجازه الغزالى من إباحة الكذب لمقصود صحيح كإصلاح ، أو تعليم صبيان ، أو ما عدا ذلك مما فى معناه ؛ وبين اعترافات الغزالى فى المنقذ ؟

نعم ؛ إنك قد رأيت رأى الغزالى السابق : من إباحة الكذب فى سبيل الإصلاح .

وقد رأيت أيضاً : أن اعترافات الغزالى ، هى تصحيح لموقفه ودعاية لطريقه ، ولطريق الصوفية الذى اعتنقه ، وتسفيه لكل ما عداها من الطرق ، وأنها اعترافات ، قد أسدل عليها ثوب الحقيقة ، وأطلق العنان فى حبكها للخيال .

بعد هذا ؛ ألا يمكننا أن نعتذر للغزالى :

بأنه حينما أراد أن ينشر ذلك بين الناس ، وعند ما أراد أن يثبت طريق الصوفية ، الذى آمن بأنه هو الطريق الحق ، وسبيل النجاة ، اخترع قصة هو محورها ، وحاك رواية هو بطلها ، واستقى بعض فصولها مما حصل له فعلا ، وأضاف لهذه الفصول ، بعض الحقائق المتمناة ، وجعلك تحس بعض الشكوك ، وتلمس شتى الهواجس ، وقد بزغت حين الكتابة فقط .

وهى أشبه ما تكون « بالرتوش » والتزاويق ، التى تضيفها ريشة المصور على الصورة التى ينقلها عن الطبيعة ، فيجمع فيها بين الحقيقة والخيال ، ويقرن فيها الواقع بالمثال .

فعل الغزالى كل هذا : ليحبك القصة ، ويُشيع فيها الحياة ، لتقوى على النضال ، فتفتح طريقاً لإقناعك ، وتحملك على أن تسير على ضوئها ، وتنهج النهج الذى رَسمته ، وتخطو الخطوات التى أملتها .

وبدلا من أن يعطيك قصة مخترعة من أساسها ، بطلها وهمى ، وحوادثها لم توجد أصلا ؛ إلا فى عالم الخيال ، كقصة حىّ بن يقظان مثلا ، أعطاك قصة هو بطلها ، وصاحب حوادثها .

١٣ — الغاية تبرر الوسيلة ، مادام الضرر مفقوداً ، ومادام المقصود حسنا

نعم : وإذا كان قد كذبَ فى هذه القصة ، فما كذب على أحد ، وإذا كان قد قال غير الحق . فما ضر إنساناً ، لأن الكذب جريمة لما يتبعه من أثر ، ولما يتلوه من نتائج ، وكما قال الغزالى نفسه : « هو حرام لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره » .

أما هنا ؛ وفى هذه الاعترافات ؛ فهو يكذب ملصقاً الكذب بنفسه لا بالناس ..

ونتيجة كذبه لن تضر أحداً ، ولن توقع أحداً فى شر ... أو تأخذ بيد أى إنسان إلى تهلكة ، أو تنحدر به إلى ضلال .

بل ستسير بالناس إلى الإرشاد والإصلاح ، أو على الأقل ؛ هو يكذب ليدافع عن نفسه ، وليصحح موقفه ، ليكون مثالا يحتذى ، ونموذجاً يفتقد .

فهى على كل حال قصة مخترعة ، قصة كما قلت أسندها لنفسه ، وفيها بعض الحقائق الواقعية ، وبعض الحقائق المثالية .

وهدفه من ذلك : الإرشاد والتعليم ، وغرضه من هذا :

الإصلاح والتهذيب .

١٤ — سبب تقديم هذا الاعتذار

ولكن ما قيمة هذا الاعتذار ؟

ولأى سبب سقت أنا هذا الرأى ؟

نعم : هذا رأى أقوله فقط ، لأدافع به عن الغزالى ، وأعتذر به عنه ، وقد يقنع هو به ، كما قد يقنع به بعض الناس .

ولو أنه قد لا يقنع كثيراً من المفكرين الأحرار . والفلاسفة الأخيار الأطهار ، الذين لا يخشون فى الحق لومة لائم ، والذى يريد الغزالى أن نخرطه فى سلكهم ، والذى يريد كثير من بُحّاث المسلمين والمستشرقين ، وضعه فى مصافهم .

وإذا كنتُ قد أجهدت نفسى فى نقد هذه الاعترافات ، وتحليلها وإرجاعها إلى أصلها ، وكددت الفكر ، وعصرت الذهن ، حتى أثبتّ أنها اعترافات لا حقيقة لها ، وأن تاريخ الغزالى الفكرى والنفسى — كما حكاه هو نفسه فى المنقذ — تاريخ غير مطابق للواقع .

إذا كنتُ فعلتُ كل هذا . فلماذا سقت هذا الاعتذار إذاً ؟

نعم ؛ إنى اعتذرت بذلك للغزالى ، وقدمت بين يدى اعترافاته هذا المخرج ، حتى لا يتعارض الغزالى مع نفسه ، وحتى لا ينزل من عرشه الذى بناه على مدى القرون والأجيال ، وحتى لا توجه إليه سهام النقد والتجريح ، وحتى لا يقال :

إنه قال اعترافات ؛ هى غير صحيحة أصلا ، وبث بين يدينا تاريخه ، وهو غير مطابق للواقع بتاتا .

لأنه فى الواقع : ما قال لنا تاريخا ، وما حكى إلينا اعترافات وإنما قال : قصة ؛ ألبسها ثوب الحقيقة ، وحكى اعترافات ؛ أسدل عليها لباس الواقع .

فإذاً : الغزالى على هذا النحو والاعتبار ؛ باق بكرامته ، وباقية معه الثقة به ، والاطمئنان إلى أقواله .

١٥ — وماذا بقى إذاً ؛ بعد هذا الاعتذار ؟

نعم : إن هذا اعتذار يبقى على الغزالى ؛ كمفكر له خلق الإسلام ، ونظر البحاث .

ولكن الذى لا شك فيه ، أنه مهما أوّلنا ، وخرّجنا واعتذرنا فقد ثبت :

أن هذه الاعترافات : — اعترافات الغزالى — غير صحيحة فى جملتها .

وأن هذا التاريخ : — تاريخ الغزالى — الذى قصه فى المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال ، غير مطابق للواقع فى مجموعه .

وأن الكتاب : — كتاب المنقذ — لن يصبح بعد اليوم ، مصدرا «Fonte» من مصادر تاريخ الغزالى الفكرى ، ولا منبعاً تسيل منه حقائق تطوره العقلى ، والعلمى ، والنفسى ، وأننا عندما نؤرخ له ؛ يجب أن نبحث عن مصدر آخر ، نستق منه كل ما نريد .

١٦ — وما قيمة المنقذ إذاً ، بعد أن يبقى هذا الاعتذار للغزالى كرامته والثقة به ؟

وما قيمة المنقذ إذاً ؛ بعد هذا ؟

نعم ؛ إن المنقذ يصبح بعد هذا الإسفار ، وذلك الإيضاح ، ولما

يحوى من اعترافات تمناها الغزالى ؛ وأرسلها ليقنعنا بمطابقتها للواقع .

يصبح المنقذ جملة لا تفصيلا ، شعاعا من الأشعة التى توضّح لنا الغزالى و نفسيته ، وضياء يهدينا إلى الفكرة التى يجب أن نكوّنها عن الغزالى وعقليته :

كيف جاهد وجالد ؟

أساليبه ووسائله ؟

أهدافه وغاياته ؟

وهل الغاية تبرر الوسيلة ؟

أو الوسيلة والغاية جزء لا يتجزأ ؟

... وهل ... وهل ... ؟؟

١٧ — أثر هذا البحث

إذاً فما هو أثر هذا البحث ؟

نعم بعد هذا كله ، يمكننا أن نجمل أثر هذا البحث ، وأهداف تلك العجالة فيما يأتى :

**ا — المنقذ ليس بتاريخ حقيقى للغزالى**

إن « المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذى العزة والجلال » وما فيه ، ليس بتاريخ حقيق لتدرج الغزالى الفكرى ، ولتطوره العقلى والنفسى ، ولن يعتبر بعد اليوم مصدرا لذلك .

**ب — اعترافات الغزالى فى المنقذ هى مثالية**

وأن الاعترافات التى سجلها بين صفحات المنقذ ، ليست

باعترافات صادقة صريحة ، مطابقة للواقع ، وإنما هى اعترافات مثالية ، كان يتمنى الغزالى أن تكون حياته على شاكلتها .

**حـ — تاريخ الغزالى فى المنقذ هو قصة ، وأبو حامد بطلها**

ولهذا فقد تكون قصة الغزالى ، التى قصها فى المنقذ عن تطوره العقلى والنفسى ، حكاية المقصود منها الإرشاد والإنقاذ ، ونشر أسلوب فكرى توجيهى ، يرى الغزالى أنه منقذ للناس من الضلال ، وموصلهم إلى ذى العزة والجلال .

أما بطل هذه القصة : فهو الغزالى نفسه .

أما حقائقها : ففيها الواقعى الذى حصل ، وفيها المثالى ؛ الذى كان يتمنى الغزالى أن يحصل .

**ء — على المستشرقين وغيرهم أن يراجعوا ما كتبوا ، فقد ينقضوا ما أبرموا**

ولهذا يجب على المستشرقين من الأوربيين ، والبحاث من المسلمين ، الذين اعتمدوا على المنقذ من الضلال ، فى تاريخ الغزالى ، أن يراجعوا ما كتبوا ، فقد ينقضوا ما أبرموا ، ويحلوا ما عقدوا .

أمثـــال :

مكدونالد — D. B. Macdonald ، آسين بلاسيوس[1] —

---

(١) وهذا هو المستشرق الوحيد ، الذى وجه إلى الغزالى بعض سهام النقد والتشكيك ، فى كتبه التى كتبها عنه باللغة الأسبانية .

N. Asin Palacios ، كاراديفو — Carra de Vaux ، جولد
تسيهر — Gold Ziher ، برانتل — Prantl ، نيكلسون —
Nicholson ، براون — Brown ، ماكس هورتن — M. Horten
دى بور — T. J. de Boer ، أوبرمان - Obermann ، شمولدر —
Schmöldera ، باديبيه . دى مينار — B. de Meynard ، ناللينو —
Nallino ، وبروكلمان ، وماسينيون ، وغيرهم .

هذا إذا كانوا أحياء ؛ أما إذا كانوا أمواتاً ، فعلى تلامذتهم ،
وقراء كتبهم ، أن يضعوا هذا تحت أنظارهم .

### ح – خصائص هذه العجالة ، أو الجديد فى أسلوب ذلك البحث

١٨ – مقدمات ونتائج

أول شيء يلفت النظر فى هذه الرسالة ؛ أنها اتخذت الشكل الرياضى ، أى مقدمات ونتائج

وكذلك اتخذت الشكل الدراسى ، فهى نقاط بسيطة شرحت ، وأسئلة أوردت أجيب عليها .

وقد أخذت الرسالة هذين الهدفين أساسا لها ، حتى لا يضيع وقت العالم المتخصص ، وحتى تأخذ بيد الطالب الشادى إلى مناهل العلم ، فتسهل عليه التحصيل ، وتجرّئه على النقد والبحث ، فهى كقنطرة بين الدراسة المدرسية ، وبين البحوث الجامعية .

لأن هناك بحوثا ورسائل كثيرة ؛ مع أنها تحوى العلم والعلم الحق ، ما كان أسلوبها المستفيض ، باعثاً للعلماء الحريصين على أوقاتهم ، ولا نتائجها المدفونة المبعثرة ؛ مشجعة للطلاب الشادين .

١٩ – إغفالها الاستشهادات وبعدها عن الإطالة

وكذلك كانت الرسالة صغيرة الحجم ، غفلا من الاستشهادات التى لا لزوم لها ، بعيدة عن البحوث التاريخية غير المهمة ، التى أولى ما يكون بها بطون الكتب ، وصفحات التاريخ .

وذلك : حتى لا يضيع وقت القارىء ، فالزمان زمان الحرب الخاطفة ، والدقيقة الآن من حياة الإنسان ؛ بل من حياة الإنسانية ، تعد بآلاف السنين .

وإنما الذى يمكن أن أقوله بكل جرأة ويقين ، أن جميع أفكارها مبتكرة (Origenale) وجميع ماصوبت نحوه ، لم يسبقنى إلى التصويب إليه أحد ، مع كثرة الروّاد ، ووفرة الرماة .

أما الميزة الرابعة والأخيرة والهامة ، فهى الجرأة والقوة ، نعم ؛ الجرأة فى معانيها ، وفى ألفاظها .

٢٠ — جرأة معانيها

أما قوة معانيها ، وجرأة أفكارها ، فلا شىء فى ذلك ما دامت المقدمات صحيحة ، والمراجع المستقاة منها هذه المقدمات أصح ، وما دامت الأمانة العلمية ، حية متيقظة بين العقل والضمير .

٢١ — جرأة ألفاظها

أما عنف ألفاظها ؛ فقد كان فى الإمكان أن تكون أهدأ من ذلك حقاً ، وهذا هو ما وجهه إلىّ أستاذ كبير — كان لى المثل الأعلى ، وسيظل كذلك — لأنه يرى أن البعد عن هذا العنف اللفظى الشكلى ، أليق ما يكون بالبحث العلمى ، و بطبيعة العلماء .

٢٢ — ضرورة لابد منها

نعم لا نزاع فى أن ذلك صحيح ! .

ولكن : ماذا أفعل أمَامَ هاته المعانى التحليلية ، وتلك النقدات العلمية ، فهى عنيفة وقوية ؟

ولهذا فلا بد أن تكون تلك الأثواب التى تلبسها هاته المعانى ، وتلك الرسوم التى تحدّد هذه النقدات ؛ أقوى وأعنف . حتى تطيقها فلا تضيق بها ، وحتى تتحملها فلا تتهلهل عنها .

ماذا أفعل أمام هذه الفكرة — فكرة صحة هذه الاعترافات

وقداستها — التى أسدل عليها مر السنين ، وكر القرون ، قوة ، ومنعة ، وصلادة ؟

هـذه القوة وتلك المنعة وهاته الصلادة ، لا يمكن أن توجه إليها سهام النقد والتشكيك ، أو تسلط عليها أضواء التحليل والتفنيد ، بمعان ضعيفة ، وبألفاظ أضعف ، فتنقض من أساسها فى لحظات وثوان[1] .

ولهذا وجب أن تكون المعانى قوية ، والألفاظ أقوى ، متكافئة متشاكلة مع المنقود ؛ هذا إن لم تكن تفوقه قوةً وعنفاً .

وذلك أشبه ما يكون ؛ بكتلة جبلية ، زادتها الأيام والليالى « صخورة » وصلادة فأزالت عوامل التعرية ما هشّ منها ، ولم يبق إلا الصلد المتماسك .

فهذه الكتلة : لا يمكن هدمها إلا بمعول يدُه من « الشوم والزان » ، ونصله من الفولاذ ، والساعد الذى يمسكه ؛ كأنه قُدَّ من ذلك الصخر .

أما الضربة : فيجب أن تتناسب مع الهدف ، قوية ؛ تصطدم فتفتت ، عنيفة ؛ ترتطم فتأتى على كل ما وقف فى طريقها .

وإلا كنا بين الحقيقة والمثال :

كناطح صخرة يوماً ليوهنها      فلم يضرها وأوهى قرنَه الوَعِلُ

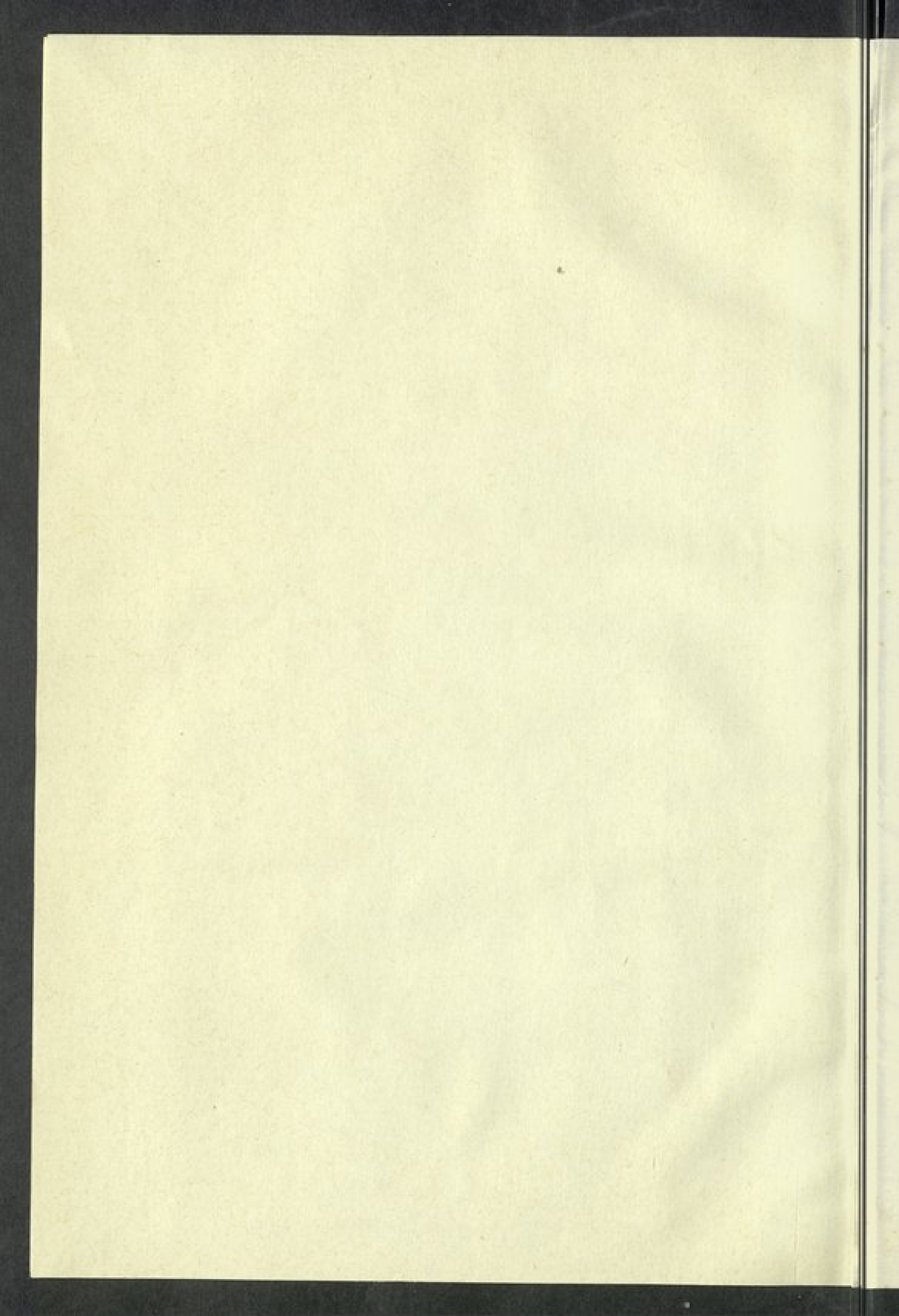
---

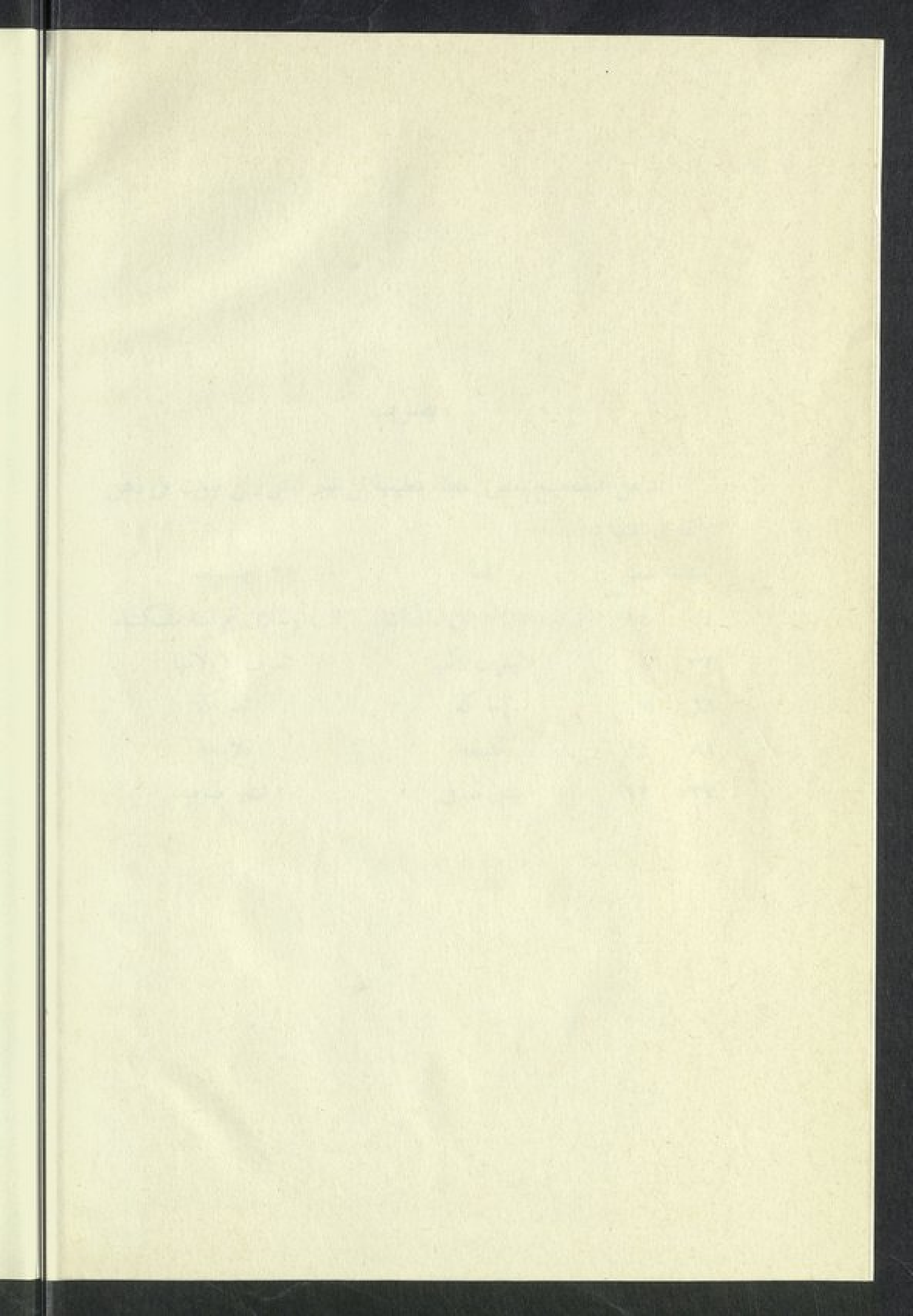
(١) لأنى على ما أعتقد لم أعثر على أحد من البحاث والمستشرقين ، قد نقد هـذه الاعترافات على النحو الذى نقدتها بتاتاً ، حتى يمكن أن يقال : إن هذا النقد قد بدىء فيه من زمن بعيد ، فتكاثرت عليه النقاد واختلف إليه الدارسون .

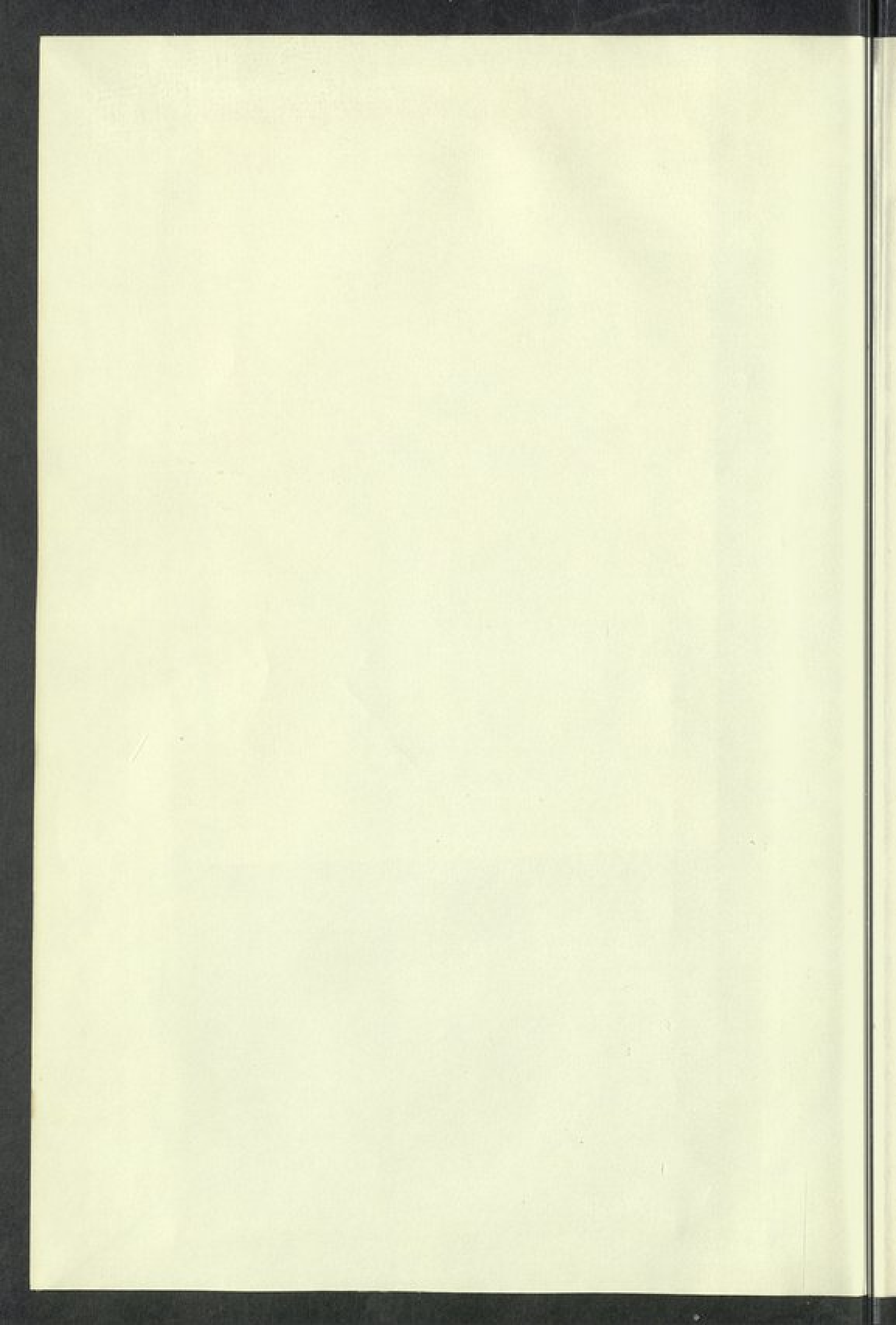
## تصويب

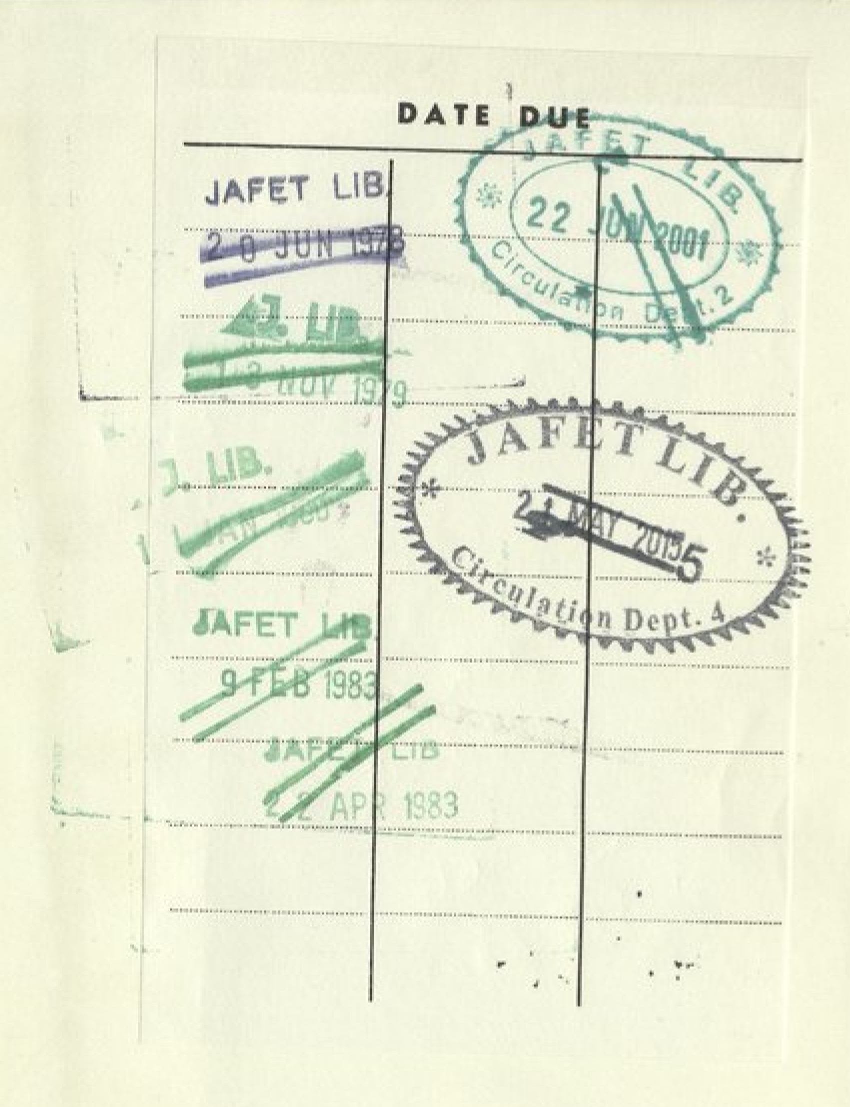
ند عن التصحيح بعض أخطاء مطبعية لن تغير المعنى ولن تفوت على ذهن القارىء منها :

| صفحة | سطر | الخطأ | الصـواب |
|---|---|---|---|
| ٤ | ١٤ | ابن أرسلان ثم ابن ملكشاه | الب أرسلان ثم ابنه ملكشاه |
| ٣٤ | ٦ | لاتعرف لأنها | تعرف لا لأنها |
| ٦٨ | ٧ | إحاكة | حباكة |
| ٨١ | ١٤ | فلسفة | فلاسفة |
| ١٢٧ | ١٢ | يعتبر صوفى | يعتبر صوفياً |








DATE DUE
JAFET LIB.
20 JUN 1978
J. LIB.
13 NOV 1979
J. LIB.
JAFET LIB.
9 FEB 1983
JAFET LIB
22 APR 1983
JAFET LIB.
22 JUN 2001
Circulation Dept. 2
JAFET LIB.
Circulation Dept. 4

